PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1603-1633
ISSN: 1553-6939

Primitive Monotheism: A Critique of Evolutionary Theories of the Origin of Religion

Professor Benmammar Abdallah[1], Professor Naima Rahmani[2]

[1,2]University of Tlemcen (Algeria).

The Author's E-mail: abdallah.benmammar@mail.univ-tlemcen.dz[1], naima.rahmani@mail.univ-tlemcen.dz[2]

Received: 04/2024 **Published: 09/2024**

Abstract:
Monotheism is simply belief in one God, and is contrasted with polytheism, paganism, or polytheism, i.e. belief in multiple gods. The word monotheisme is relatively new, and was invented in the mid-seventeenth century by the British philosopher Henry Moore. It comes from the Greek word monos (lonely) and theos (god) in the Western tradition. This belief in one God refers specifically to the God of the Bible, the God of Judaism, Christianity, and Islam. Monotheism has been a controversial topic, which has been debated by theologians, historians of religions, and anthropologists. The point of disagreement between these scholars is about the priority of monotheism or polytheism and polytheism. In anthropology, all evolutionary theories on the origin of religion go to say the primacy of polytheism and that monotheism emerged from polytheism after a long process of evolution. Monotheism was the end and polytheism was the beginning. But some scholars, led by Wilhelm Schmidt, the diffuse anthropologist, rejected the theories of evolutionists and defended the primacy of monotheism and called it primitive or primal monotheism. See how he prove that?
Keywords: Monotheism, Primitiveness, Theories, Religion.

التوحيد البدائي: نقد النظريات التطورية في أصل الدين

الأستاذ الدكتور بن معمر عبد الله[1]، الأستاذة الدكتورة نعيمة رحماني[2]

[2،1]جامعة تلمسان (الجزائر).

الملخص

التوحيد هو ببساطة الاعتقاد في إله واحد، و يقابله التعدد أو الوثنية أو الشرك، أي الاعتقاد في آلهة متعددة. وكلمة monothéisme حديثة نسبيا، اخترعها في أواسط القرن السابع عشر الفيلسوف البريطاني هنري مور. إنها تنحدر من الكلمة اليونانية مونوس monos (وحيد) وتيوس (إله) في التقليد الغربي. هذا الاعتقاد في إله واحد يحيل بشكل خاص إلى إله الكتاب المقدس إله اليهودية والمسيحية والإسلام.

وقد شكل التوحيد موضوعا مثيرا للخلاف، خاض فيه اللاهوتيون ومؤرخو الأديان والأنتروبولوجيون. ونقطة الخلاف بين هؤلاء العلماء هي حول أسبقية التوحيد أم الشرك والتعدد. في الانتروبولوجيا كل النظريات التطورية في أصل الدين تذهب إلى القول بأسبقية الشرك وأن التوحيد خرج من الشرك بعد عملية تطور طويلة. فالتوحيد كان النهاية والشرك هو البداية. ولكن بعض العلماء وعلى رأسهم فيلهالم شميدت الأنتروبولوجي الانتشاري رفض نظريات التطوريين ودافع عن أسبقية التوحيد وسماه بالتوحيد البدائي أو الأولاني. ترى كيف أثبت ذلك؟

الكلمات المفتاحية: التوحيد، البدائية، النظريات، الدين.

مقدمة

في عام 1955 نشر كتاب "في أصل فكرة الاله" لمؤلفه فلهالم شميدت بعد عام على وفاته. كان عدد صفاته يتجاوز 11000 صفحة. في هذا الكتاب عرض المؤلف نظريته حول أصل الدين وتطوره.

تأثر شميدت تأثرا قويا باكتشاف أندرو لانغ للآلهة الكبار لدى أقدم الشعوب بدائية. لقد أدرك شميدت أنه ليس من الممكن الإجابة عن سؤال حاسم وجذري مثل سؤال أصل فكرة الإله من دون أن نستخدم قبل كل شيء منهجا تاريخيا شديد التماسك، يجعلنا قادرين على تمييز التراصفات الثقافية في المجتمعات البدائية وعلى توضيح أمرها. يعترض شميدت اعتراضا شديدا على المقاربات غير التاريخية التي يعتمدها تايلور وفريزر ودوركايم ومعظم الأنتروبولوجيين. وهو كان واحدًا من أوائل الذين أدركوا أهمية الإتنولوجيا التاريخية التي اعتمدها غرابينر، لا سيما مقولته حول الحقل الثقافي أو الدورة الثقافية. إذ ساعده التراصف التاريخي على تمييز التقاليد الغابرة بل الأولية عن التطورات والتأثيرات اللاحقة. فقد حاول شميدت في حالة أستراليا مثلا أن يبرهن على أن الإيمان بإله أكبر كان أمرا مشهورا منذ أقدم الأزمنة، في حين أن الطوطمية ميزت العشائر الأحداث عهدًا من الناحية الثقافية. والإتنولوجيا التاريخية تعتبر أن عشائر جنوب شرق أستراليا البيجمة، وبعض عشائر شمال آسيا وأمريكا فضلا عن الفويجيين هي بقايا من بقايا أقدم الحضارات في العالم. وكان شميدت يعتقد أن الانطلاق من هذه الأحافير الحية يمكننا من إعادة تكوين الديانة الأولية. وهذه الديانة كانت تقوم برأيه، على الإيمان بإله أكبر أزلي، عليم، رحمن رحيم، وافترض أنه يعيش في السماء. وقد توصل شميدت إلى نتيجة مفادها أنه كان هناك منذ البداية، وفي كل الأمكنة، توحيد أولاني، ولكن التطورات اللاحقة التي أحاقت بالمجتمعات البشرية شوهن المعتقدات الأصلية، بل محت آثارها في كثير من الحالات .

وقد اعترف روبرت لووي وبول رادن وغيرهما من الإتنولوجيين بوجود إيمان بكائنات كليا لدى أقدم الشعوب. وقد كان شميدت يزعم أن الإنسان البدائي في بحثه المنطقي عن علة مسببة للأشياء اكتشف فكرة الله. وهذه مقاربة عقلية بحتة وفقها اعتقد شميدت أن كل العناصر اللاعقلانية تمثل تدهورًا طرأ على الدين الأولاني.

وهكذا فإن شميدت الانتشاري قد عارض النظريات التطورية بقوة، ولم يقبل فكرة أن تاريخ الإنسانية هو مرور من البسيط إلى المعقد. تطور من الفظ والناقص نحو الكمال والحضارة. على المستوى الديني ما يرفضه هو الفكرة القائلة أن الشعوب الأكثر بدائية فيتيشية، أو سحرية أو أرواحية وأنها تطورت شيئا فشيئا نحو الدين أو العلم. شميدت دافع في المقابل عن أن الشعوب الأكثر بدائية كان لها معرفة أضافية وخالصة عن فكرة الله. وعليه فإن التوحيد أسبق من تعدد الآلهة حسب نظرية شميدت. وليس الإنسان البدائي هو من اخترع الإله ولكن الإله على العكس، هو من علم الناس ما ينبغي اعتقاده والطريقة التي يعبدونه بها. وفي النهاية "ليس الإنسان هو من اخترع الإله ولكن على العكس الإله هو من اخترع الإنسان".

النظريات التطورية ونقدها

1-مدرسة ميثولوجيا الطبيعة:

النصف الثاني من القرن الثامن عشر لم يعلن عن الظهور المقبل لمدرسة هي مدرسة ميثولوجيا الطبيعة، تذهب الى جعل الشعوب عالية الحضارة ومتوسطتها موضوعا مركزيا لدراستها، بل إن فضولها الفكري تركز على الشعوب الهمجية التي كرس لافيتو لها كتابا ضخما. هذه الحركة كانت قوية بما يكفي لظهور عملين لم يتم إعادة نظرياتهما إلا فيما بعد أفول مدرسة ميثولوجيا الطبيعة.

الكتاب الأول هو للرئيس ش .دوبروس Ch. De Brosses المعنون: عبادة الآلهة الفيتيشية أو موازاة الدين القديم بمصر مع الدين الحالي للنيغريتي (1760).

بالنسبة له الفيتيشية المتولدة عن الخوف، والتي يعطي لها معنى واسعا والصابئية، أو عبادة النجوم، المتولدة عن الاعجاب تمثلان نقطة البداية للتطور الديني للشعوب. ويستثني الشعب العبري، ربما بسبب تجنب اللوم.

والكتاب الثاني والذي يتميز بنفوذ نقدي هو كتاب الكاهن ن. س. بارجيي N. S. Bergier "أصل آلهة الوثنية(1767) وقد أعلن عن المدرسة الأرواحية، الفيتيشية وعبادة النجوم. يشرح بارجيي لقد سبقتا بعلم نفس الطفل الذي يرى الجن والأرواح في كل مكان. إنه لا يسمي فقط الخوف والاعجاب كمصادر ذاتية للدين، كل الحساسية الانسانية يجد فيها الدين الاشباع لما يحتاجه وليس فقط الحساسية ولكن العقل المنشغل بالأسباب والاهتمام العملي.

فلسفة الدين خلال النصف الأول من القرن 19

الثورة الفرنسية وحرب نابوليون كانت قد دمرت أو أضعفت الارساليات، وأضعفت أو صعبت العلاقات مع المستعمرات. خلال عشرات السنوات النشاط العلمي، القوي في فرنسا إلى غاية الآن، وجد نفسه مبطأ. والأمر نفسه بالنسبة للدراسات القابلة لتقديم معلومات إثنوغرافية جديدة. كل هذا ترك المجال حرا للتأملات حول تطور الشعوب وتاريخ الأديان. ألمانيا التي راحت فرنسا لبعض الوقت تتنازل لها عن الأسبقية العلمية في هذا الميدان، وجدت في وضعية مماثلة.

هكذا يبدو تأخر تكوين تاريخ حقيقي ووصفي للدين.

تطور الفلسفة المثالية، التي تبنتها البروتستانتية بشكل ما، اتجه إلى ضمان سلامة الدين بتخليصه من مراقبة العقل، ليسنغ Lessing، كانط Kant، وفيخته Fichte اعتبروه كجزء من نظام الاخلاق.

هاردر Herder، جاكوبيJacobi شيلنغ Schelling، شلايرماخر Shleirmacher، وفريز Fries، أبعدوه إلى ميدان التجربة الحميمية. كانط كان قد أعلن أن العلم الخارجي قابل للمعرفة من حيث حقيقته التي لا ندرك منها سوى الظاهر. فيخته وخاصة هيجل استنتجا أن الأنا Moi وحده، الروح حقيقي وأن الله ليس له حقيقة إلا في ذاته. ليسنغ في كتابه عن الألوهية كتربية للإنسانية وهاردر ضمن أفكاره عن فلسفة التاريخ للإنسانية قاما بتدريس نظرية التطور الصاعد للنوع البشري. أما هيجل فلم يعرف أبدا في واقع التاريخ الديني سوى إله يأخذ وعيا أكثر وضوحا عن ذاته في الروح الانسانية.

بواسطة رد الفعل ضد عقلانية القرن 18، التي طالبت بإخضاع الاديان إلى معيارها الأوحد للعقلانية، تطور إذن بتميز في الأوساط البروتستانتية والأوساط الكاثوليكية على حد سواء، ارتياب شديد من العقل فيما يتعلق بالدين. خاضعة لطبيعتها البروتستانتية لجأت هذه الأخيرة إلى التجربة الذاتية للفرد، والكاثوليكية خاضعة لطبيعتها هي أيضا بحثت عن أمنها في القوة الموضوعية للتقليد. ولكن منذ 1834، التعليم الرسمي للكنيسة وبخ كلا الموقفين. لقد احتفظ صراحة بإمكانية المعرفة العقلية فيما يتعلق بالدين والحاجة الملحة إلى البرهنة العقلية على المقدمات الطبيعية للإيمان.

الرمزية وتأسيس تاريخ الدين بواسطة ك.أ مولر K. O. Muller:

مع الكثير من المعرفة والمنهج، مهما كان الأمر تحت تأثير التوجه المزدوج الذي أتينا على ذكره، كان يعمل في هذا الأثناء جماعة من العلماء الألمان المرتبطين بجامعة تيبانغ يسمون بالرمزيين، أحد كتب زعيم هذه الجماعة فريدر جرونجي Friedr Gronger(Symbolik und Mythologie der alten volker) في أصل التطور الديني، وضع هذا الأخير وثنية نفسية تحرك وتشخص قوى الطبيعة على العموم أرواحية بدائية، أو بشكل أفضل تحت تأثير شيلنغ حلولية تشبيهية التي تبعا لها الانسان يشعر أنه يشكل شيئا واحد مع الطبيعية.

عن هذا الشعور بالوحدة ينتج عفويا لغة محملة بالعبارات الرمزية. فيما بعد انطلاقا من هذه الرمزية العفوية تتشكل رمزية تأملية، عندما يتبع التطور مجراه كان ينبغي وضع لا نهائية الإلهي في أشكال محدودة من اللغة والفن. وهكذا تولد الأساطير. الذكاء الفظ للشعوب الرعوية لم يدرك سوى المعنى الظاهري. مهذبة أكثر، الشعوب الزراعية خلطت المعنى الباطني بعباداتها السرية. الممثلون الممتازون للأفلاطونية المحدثة، أفلوطين، بورفير وبركليس كانوا أدخلوا معنى هذه الأعاجيب بحيث نلاحظ العديد من التطابقات مع المسيحية. في علاقته مع الحركة التي دشنها كروزر ك. هـ فولكر K. H. Volker وخاصة ك أتفريد مولر K. Otfried Muller دشن في نفس الفترة الدراسة التاريخية للدين.

مولر وضع في أصل الدين ما أسماه المعنى العالمي للإلهي. الجرثومة الحقيقية للدين، كما لاحظ، ليست التأمل الفكري لظواهر الطبيعة، ولكن مطمع القلب البشري. لدى الإغريق هذه الحاجة وجدت تحققها في الاعتقاد بتعددية في الكائنات العليا، التوحيد هو ثمرة متأخرة للتطور، مولر يبدو أنه ظل تابعا لفلسفة زمانه. مع ذلك هذا المؤرخ يبدو أنه عندما يؤكد أن كل شعب، وكل قبيلة لها طريقة خاصة في ترجمة معنى الإلهي هذا والتعبير عنه في أسطورة خاصة بها، في الغالب هذه الاسطورة تمثل التأويل المقبول للأحداث المعروفة من قبل الجميع. بالنسبة للفكر الأسطوري الساذج، الواقعي بمعنى الحدث والمثالي بمعنى تأويله الذاتي، يمثلان شيئا واحدا، ومن أجل فهم الأساطير يجب فهم عقلية الشعب والفترة المعنية.

مدرسة ميثولوجيا الطبيعة:

بينما تطور الفكر الفلسفي وتطور التأمل الميثولوجي كانا يحضران الارضية إلى المدرسة الجديدة، فإن اكتشاف والدراسة الايجابية للغات الهندوأروبية بواسطة كاردو P. Coeurdoux (1767) وفون جونز W. Jones (1788) وفون شليجل Von Sclegel (1808) وبوب F. Bopp (1816) وبوتي Fr. Poti (1833) إلخ كانت قد أمنت المواد الوفيرة فيما يتعلق بالدراسات اللغوية. ألمانيا كانت في الصف الأول. لقد استفادت عندما أثمرت دراستها في ميدان التاريخ المقارن للدين. من جهة أخرى الشعوب الهندوأوروبية شكلت حقلا للبحث محددا جيدا حيث أن استغلاله كان مناسبا لظهور مدرسة بالمعنى الدقيق للكلمة.

من مدرسة ميثولوجيا الطبيعة هذه الأولى التي عرفها التاريخ المقارن للدين يمكن القول أن المدشن الحقيقي لها كان أديبار كوهن Adalbert Kuhin وقد أصبح ماكس مولر Max Muller زعيمها فيما بعد. إلى جانب المجموعة الألمانية من المناسب أيضا أن نذكر المجموعة المستحقة جدا من العلماء الفرنسيين التي يترأسها أوجين بيرنوف Eugen Burnouf والجميع متفق على اعتبار الصور الميثولوجية وحتى الإلهية كتشخيصات لحقائق طبيعية. النجوم بشكل خاص ولكن أيضا الظواهر الجوية. ماكس مولر وميشال بريال اللذان أعلنا أنهما بطلان للميثولوجيا الشمسية لم يوافقا على موضوعات ميثولوجية أخرى غير شروق وغروب الشمس وأنشطتها المختلفة. بالنسبة لبلوا Ch. Ploix السماء تحت أوجهها المختلفة هي التي كانت الموضوع الرئيس للميثولوجيا. كوهن فضل المطر والرعد والبرق وفضل رونو Regnaud ورونال Renel النار.

وبالنسبة للمستقلين كفورشهامر P. W. Forchhammeفضل الماء.

لقد كان تفسير الأسماء الإلهية من أكثر الطرق شيوعا في تفسير الأساطير. علم الصوتيات الذي كان لا يزال غير كامل للغاية، كان بمثابة دليل غير مؤكد الى حد ما، أحد عيوب هذه المدرسة يكمن في الاستعمال الحصري للوثائق الأدبية والوثائق الأخرى وبشكل خاص شهود الحضارة المادية لم يتم أخذها في الاعتبار. وهذا ما يفسر الاهتمام القليل الممنوح لديانات وآلهة ما قبل الهندوأوروبية والتي كان بقاؤها في العصر الهندوأروبي ممتدا كثيرا الى درجة بدا معها أن الدراسة تتعلق بنفس الأساطير.

ماكس مولر أعماله ونظرياته:

ماكس مولر الذي امتدت حياته وأنشطته العلمية طويلا، كان أحد الأعضاء الأوائل لهذه المدرسة، التي ساهم في إذاعة واشاعة أفكارها. وهو ابن الشاعر الالماني ويلهالم مولر، فريدريك ماكس مولر درس في باريس وأكمل مسيرته المهنية كلغوي ومؤرخ للدين في انجلترا وخاصة في أكسفورد وقد نشر خلال حياته عددا كبيرا من النظريات. وكان لهذه النظريات تأثيرا كبيرا حتى أنه نال شرف بناء صرح علم الاديان. منذ 1856 طبع Essay on comparative Mythology والذي أعاد طبعه مع دراسات أخرى تحت عنوان Chips from a German work shop في سنة 1873 ظهر كتابه مقدمة في علم الدين وفي سنة 1878 ظهر كتابه Hibert lectures on orininal and grouth of religion us illustraded by the religion in India والدين الطبيعي (1889)، والدين الفيزيقي(1891)، والدين الانثروبولوجي (1892) و Theosophy of psychological (1893)، وقبل موته بقليل ظهر كتابه إسهامات في علم الميثولوجيا (1817) وأخيرا فقد عمل إلى غاية موته على نشر مجموعة كتب الشرق المقدسة، وهي مجموعة ضخمة من الوثائق الرئيسية في تاريخ الدين.

بالنسبة لماكس مولر الميثولوجيا تجد أصلها في مرض يصيب اللغة وهو المرض الذي يجعله يتكون من وفرة زائدة عن الحاجة. تعدد أسماء الشيء نفسه وتجانس العديد من الأشياء قد يؤدي إلى ارتباك في الأسماء الإلهية. كان من الممكن أن يؤدي هذا أحيانا إلى توحيد آلهة متعددة، وأحيانا إلى تكاثر إله واحد: Nomina Numina. النهايات المختلفة للأنواع النحوية ساهمت بشكل خاص في ظهور الشخصيات الإلهية. لم يعترف مولر بأي وحي خارجي بدائي. عند أصل التطور الديني وضع أولا نوعا من الوحي الذاتي، وهو عمل اللانهائي على النفس، ولكن فيما بعد يعزله أو يجسده. الشكل الأصلي لفكرة الله لم يكن لا التوحيد ولا الشرك ولكن هينوثية Hemotheisme، بمعنى هذا الموقف العملي للشعور الديني الذي يعتبر ويستحضر الاله المديد الذي نتعامل معه حاليا.

ومع تقدمه في السن زادت وضعيته، وميز بين ثلاث فئات من مواضيع العبادة:

1-الأشياء التي يمكن التحكم فيها كالأحجار والاصداف.

2-الاشياء التي يتحكم فيها بشكل أقل كالأشكال والازهار والجبال.

3-الاشياء بعيدة المنال كالسماء والشمس والنجوم.

ليس للفئة الأولى بل الثانية والثالثة كان الشعراء القدماء يوجهون ترانيمهم ويمنحونها الكثير من المديح، انها مستندات النشاط والحياة والنور. الأشياء المتحكم فيها صارت أوثانا، والأشياء المتحكم فيها أقل آلهة، أما الأشياء بعيدة المنال فصارت آلهة كبرى. وفوق كل هذا مارس اللانهائي جاذبيته الغامضة هذا هو الدين الفيزيائي.

وعن علاقات اجتماعية بين الناس وعبادة الاباء والاسلاف، التي تمثل هي أيضا اللانهائي ولد الدين الانتروبولوجي، الذي ارتقى تدريجيا إلى عبادة الاب والله الخالق، وفي أوساط أخرى، النموذج الأولى للإنسان، ابن الله. ولكن الانسان يحمل في ذاته أيضا اللانهائي وعيه، أنا، أنما atma الهنود، من هنا أتى الدين التيوصوفي أو السيكولوجي.

في مجموعهم، الدين الفيزيقي، والدين الأنتروبولوجي والدين السيكولوجي يشكلون الدين الطبيعي.

هذه النظريات، وهذا هو النقد الأول الذي يجب أن نوجهه إليها، تعطي مساحة كبيرة للتأمل على حساب التاريخ وفقه اللغة العلمي. إن فكرة استخلاص الأساطير من النهايات التي تفرق بين الأجناسي النحوية هي فكرة مؤسفة إلى حد ما، لأن الأساطير موجودة أيضا مع اللغات التي تتجاهل الأجناس النحوية[1].

الفيتيشية: le fétichisme

تبعا للقانون السوسيولوجي الذي اعتقد كونت أنه اكتشفه، تطور الانسانية يتضمن ثلاث مراحل متتابعة: المرحلة اللاهوتية أو الشعرية، والمرحلة الميتافيزيقية أو المجردة، والمرحلة الوضعية أو العلمية.

في المرحلة الأولى يفسر العالم بواسطة تدخل كائنات شخصية. وفي المرحلة الثانية يعزى تفسيره إلى لعبة قوى مجردة، وفي الثالثة يقوم تفسيره على اكتشاف علاقات التتابع والتضامن بين الاشياء، من غير طرح سؤال المطلق، الفكر الانساني يتخذ موقفا وصفيا، بمعنى إنه يتجلى بالمحدد والواقعي والنسبي.

بالنسبة للمرحلة الأولى التطور يتحقق بشكل متلازم بثلاث فترات هي: الفيتيشية، الوثنية والتوحيد.

ولكن بما أن كونت يحتفظ لعبادة النجوم بمكان إلى جنب الفيتيشية كمصدر جزئي للدين، فإنه يعطي للفيتيشية معنى واسعا يدخل ضمنه عبادة النجوم. الشمس والقمر والأرض تتصف في نظره بكونها الأوثان الكبيرة. ويفهم الفيتيشية على أنها عبادة للطبيعة بالمعنى الدقيق، ديانة موضوعها الكائنات الطبيعية ذاتها، من غير علاقة يروح ما يفترض أنه يسكنها. في تقويم العبادة الجديدة الوضعية يكرس للفيتيشية شهرا كاملا. والتي تؤديها اعياد الحيوانات والشمس والقمر والنار. هذه الكائنات لم تمنح شخصية واعتبرت مسكونة بالأرواح الا في المرحلة الثانية من التطور الديني، والمتمثلة في الوثنية، والتي تقوم على تعدد في الشخصيات الالهية. بالنسبة للتوحيد كان لابد من تطور جديد وطويل.

النزعة الاثنولوجية لليبوك:

عشرون سنة من بعد، ليبوك J. Lubbock ألف كتابه: The origin of civilisation and the primitive condition of man (1870) وطرح الترسيمة التالية: اللادينية Atheisme أو a-religion، الفيتيشية، الطوطمية أو عبادة الطبيعية، الشامانية، التشبيهية أو عبادة الاصنام، الاله الخالق وارتباط الدين بالأخلاق.

الفكرة التي يكونها كونت وليبوك عن الفيتيشية تبتعد كثيرا عن المعنى الأصلي للكلمة.

الكلمة أصلها برتغاليFeitico، وباللاتينية Fuctitius وتعني تحديدا سحر، رقية مؤذية، روعة وأكثر تحديدا شيء سحري، تميمة.

غلين ليونارد Glyn Leonard في كتابه The lower viger und its tribes (1906) يقول عمليا وفي جميع الحالات ومهما يكن شكل الرمز، العبادة لا تتجه اطلاقا إلى الشيء، أو العنصر ذاته، ولكن الى هذا الشيء أو العنصر بصفته الرمز المتضمن أو الممثل للأسلاف الإلهيين للعائلة أو الجماعة أو القبيلة.

عندما ظهرت الفيتيشية فإنها لم تظهر أبدا لدى الشعوب البدائية أو الأقل تطورا ولكنها ظهرت لدى قبائل ذات حضارة عالية أي النصف متحضرة.

عبادة الأسلاف:Le manisme

[1] P. W. Schmidt , Origine et évolution de la religion, Editions Bernard Grasset, Paris, 1931, p, 59-64.

نظرية عبادة الأسلاف لدى سبينسر: هربرت سبينسر Herbert Spencer اجتهد في تطوير واختزال علم اجتماع أوغست كونت الى نظام باعطائه كقاعدة وثائق اثنولوجية واسعة. النظرية التي كونها فيما يتعلق بتاريخ الأديان تمنح أكثر من النظرية الفيتيشية خاصية سوسيولوجية. النظرية الفيتيشية ليس فيها ما هو سوسيولوجي بشكل خاص.

إنها تتعلق في جزء منها بالميتافيزيقا القديمة وفي الجزء الآخر بالعلوم الطبيعية. لسبينسر يعود الفضل في اعطاء الأهمية لهذا العامل السوسيولوجي الذي يتمثل في الأسلاف. نظرية سبينسر تقوم على الاعتقاد في الحياة المديدة لأرواح الموتى ومن هنا نشأت عبادة الأسلاف" التي هي الجذر المشترك لكل الأديان"[1].

من الانتقادات التي توجه إلى نظرية سبينسر أن الواقعة الرئيسية هي أنه في الحضارات القديمة عبادة الاسلاف لم تتطور إلا قليلا، بينما ديانة توحيدية حية يتم بسهولة تمييزها. من جهة أخرى من المستحيل إخراج عمومية ألوهيات طبيعية من أسلاف مؤهلين. الأهليون ذاتهم، في العادة، يميزون بوضوح تام بين الفئتين.

التطور الشديد لعبادة الاسلاف ينتمي للفترة الحديثة ويترافق دائما بالاختلاف الجلي تقريبا بين الالهة والاسلاف، مع تبعية الاسلاف للآلهة. وأخيرا هذا التطور يبقى رغم كل شيء محدودا جدا حينما يتعلق بامتداده الاقليمي حتى نستطيع اعطاء عبادة الأموات الأهمية الاساسية التي يعطيها لها سبينسر.

الأرواحية L'animisme :

الأرواحية تعني الاعتقاد بأن لجميع الموجودان روحا تحيى به، وصاحب هذه النظرية هو تايلور الذي بناها على شعور البدائي بهذا الشيء الذي يختلف عن الجسد وهذا الشيء يسميه الروح.

واضع النظرية الأرواحية هو بيرنت تايلور Burnett Tylor وتبناها الكثير من العلماء، وقد شرح تايلور نظريته في كتابه الثقافة البدائية، فأوضح كيف انتبه البشر الأوائل إلى الروح واعتقدوا بأن للموجودات الأخرى، من حيوان ونبات وجماد أروحا، فعبدوا الروح ثم عبدوا أرواح الموتى فمظاهر الطبيعة بوصفها ذات أرواح. ثم انتقلوا الى الوثنية فعبادة آلهة متعددة وصولا إلى التوحيد في الحضارات الأكثر تطورا.

ويذكر تايلور أن النظرية الأرواحية تتناول اعتياديا عقيدتين كبيرتين وهما جزءان لا ينفصلان: الأولى تتعلق بالروح الفردية التي تتمكن من الاستمرار بعد الموت أي بعد انحلال الجسد، والثانية تتعلق بالأرواح الأخرى بما في ذلك الالهة العليا، وتعتبر الكائنات الروحية ذات تأثير وسيطرة على حوادث الكون المادية وعلى حياة الانسان في هذه الدنيا وفي الآخرة.

والأدلة التي يقدمها تايلور على أن الأرواحية أي عبادة الروح هي الشكل البدائي للحياة الدينية تتطلب التأكد من ثلاثة أمور:

أولا: بما أن فكرة الروح هي الأساس في نظرية الأرواحية فينبغي التأكد من أن أي من عناصرها لم يقتبس من دين آخر.

ثانيا: ينبغي أن نبين كيف أصبحت الارواح تعبد وكيف تحولت إلى أقسام لطيفة.

ثالثا: ينبغي أن نوضح كيف نشأت عبادة الطبيعة عن عبادة الأرواح.

يبدو أن الأرواحية من أقدم معتقدات الشعوب البدائية ولم تزل تعاليمها إلى يومنا هذا ظاهرة بين عقائد الأديان الطبيعية التي تتجلى بعبادة مظاهر الطبيعة، ولا سيما الاقوام المتوحشة في إفريقيا وأمريكا وأقيانوسيا، ومع ذلك فإن من الصعب الجزم بما كان عليه الدين البدائي ذلك أن أديان الهمجيين المنقرضين والشعوب المتوحشة الموجودة ماهي إلا بقايا وانقاض للدين الذي كان سائدا قبل نشوء الحضارة.

ولكن كيف اعتقدت الشعوب القديمة بالروح؟

[1] P. W. Shmidit, op. cit., p, 91.

إن حالات النوم واليقظة هي التي نبهت البشر إلى الروح. ولم يستطع البشر الأوائل أن يفهموا التناوب الثنائي في اليقظة والنوم. ينام الانسان فيظن أصحابه أنه مات وعندما يستيقظ يظنون أن قوة خفية أحيته، ويرى الانسان في نومه أنه ذهب إلى مكان بعيد زاره في اليقظة من قبل، وعندما يفيق يرى نفسه في المكان الذي رآه في الحلم. وقد تتكرر هذه الحادثة فيحاول بعقليته الساذجة أن يؤول كيف ظل في المكان الذي رقد فيه، وذهب في الوقت نفسه إلى المكان الثاني، إن محاولة التأويل جعلته يعتقد بأن الذي ظل في مكانه هو الجسد، أما الذي انتقل الى المكان الثاني هو شيء مختلف عن الجسد.

إن حادثة الموت نفسها تؤيد ظنه أن في الجسد شيئا يختلف عن الجسد لأنه يرى الميت ينازع قبل الموت ثم يتوقف عن التنفس فيموت فيصور لنفسه أن القوة الحقية التي تختلف عن الجسد هي شيء آخر، وهي عبارة عن نفس (أو ريح أو هواء) لأنه بخروجها من الجسد ينقطع عن الحركة. إنه يرى في احلامه أقاربه الذين ماتوا فيجالسهم ويحادثهم ويسامرهم فإذا أفاق اعتقد بأن الذي جالسه وحادثة هو ذلك الشيء الذي يختلف عن جسد الميت.

وبعد أن انتبه البدائي إلى الروح في حالتي النوم واليقظة كان سهلا عليه أن يعمم الحادثة البسيطة وينتقل بها من فكرة الروح الى فكرة الارواح فإلى حلول الروح في جميع الموجودات.

لقد اعتقد البدائيون بوجود أرواح البشر والحيوانات والنبات وقسموها إلى أرواح طيبة او أرواح خبيثة استحالت إلى الغول والجن والشياطين ونشأت عن ذلك عبادة الأرواح وعبادة الأسلاف[1].

وقد تقبل عدد كبير من الاثنولجين ومؤرخي الاديان النظرية الأرواحية نذكر منهم: جارلوند Fr. Gerland ، بيشال O. Peschel، ويكنزG .A. Wilkens، برايسH. Preiss، راتزلFr. Ratzell، كاين A. H. Kean، لوتورنو Ch. Letourneau، تيالFr. Tiele، دينكيرJ. Deniker، سشولتزFr. Shultze، شورتزH. shurtz، بواس Fr. Boas، بوسيW. Bousset، كلود E. Cload

الخاصية التطورية الخالصة للنظرية الأرواحية:

لقد ظهرت النظرية الأرواحية في الزمن الجميل للتطورية واتخذت طابعها. فلم ينقصها لا الفرضية القبلية في تطور صاعد في خط مستقيم للبشرية، ولا اللامبالاة على الوجه الصحيح للعلاقات التاريخية بين مختلف درجات التطور. النظام الذي تصطف هذه الدرجات ضمنه واتصالاتها في التطور ليس لهما تبرير آخر لدى تايلور سوى تشابهات سيكولوجية وهذا هو القانون الأوحد لأسبقية البسيط على المعقد.

الطوطمية La totémisme:

لماكلينان J. F. Mac lennan يرجع الفضل في كشفه للمجتمع العالم مع الزواج الخارجي، الظاهرة الفضولية المتمثلة في الطوطمية. لدى بعض الشعوب العائلة والقبيلة تعتبران نفسيهما تنتميان إلى هذا النوع الحيواني أو ذاك، وهذا الانتماء يحدث تأثيرا كبيرا على تحديد القرابة الانسانية. ماكلينان أعطى الطوطمية خاصية دينية، ومنذئذ الطوطمية بدت كظاهرة خاصة وذات ظهور لاحق في كل الأنظمة التطورية لدي ليبوك وتايلور وسبينسر الخ.

رويرتسون سميث ومفهومه عن التضحية: قبل فريزر نفسه من طباعة كتابة حول الطوطمية، روبرتسون سميث W. R. Smith تلميذ ماكلينان ظهر كتابه عن القرابة والزواج في الجزيرة العربية القديمة، هذا الكتاب نفسه يسبقه مقال حول عبادة الحيوانات والقبائل المتعينة بالحيوانات لدى العرب، وفي كتاب العهد القديم، والمتبوع بالقراءات المشهورة عن ديانة الساميين.

[1] ينظر: Edward B. Tylor, la civilisation primitive, Alfred cortes éditeur , Paris ,1920, PP. 480-1012.

معيدا فكرة أستاذه، قدم سميث الطوطمية كنقطة انطلاق لكل الاديان. لقد اعتقد أن حضورها في أصل الدين السامي والعبري وإذن معيدا عبارة فريزر في أصل الايمان الحاضر المنتشر بين الأمم المتحضرة للكرة الأرضية. وكأدلة على ذلك استند الى أسماء الحيوانات التي تأخذها القبائل، عبادة الطبيعة، (النجوم، الحجارة، الينابيع، الاشجار، الحيوانات) التمييز بين الحيوانات الظاهرة وغير الظاهرة والمحرمات الغذائية التي هي نتيجة لذلك، صور الحيوانات على الرايات الاسرائيلية، الجن والشياطين التي كانت في الأصل حيوانات. الأموسية نظريته عن التضحية لدى الساميين نظرية لامعة. الأضحية التي تغدو طوطما.

في العادة لا يمكن قتل الطوطم ولا أكله. ولكن في ظروف أخرى القبيلة تجتمع من أجل الحيوان الطوطم، المتماثل مع الإله، من أجل تناوله في وجبة مشتركة، الوجبة ذاتها، اشتراك حقيقي هدفها الحفاظ على الاتحاد مع الاله الطوطم والتأثر ببأسه المتجدد وقوته الحيوية.

سيغموند فرويد وعقدة أوديب:

في وقت كان المجتمع العلمي يرفض النظرية الطوطمية التي تذهب إلى القول أن الطوطمية هي بداية الدين أو انها ببساطة ظاهرة دينية، ظهر كتابان يذهبان إلى اعتبار الطوطمية ليست فقط مصدر الدين، ولكن مصدرا للحضارة، والأخلاق والنظام الاجتماعي أيضا. الكتاب الأول هو الطوطم والطابو لفرويد (1913) وأعيد طبعه (1922) والثاني هو لدوركايم الصور الأولية للحياة الدينية.

فرويد: ينطلق فرويد من مسلمتين أساسيتين:

الافتراض أن الانسانية بدايتها كانت عبارة عن جماعات تتكون من رجل بالغ ومجموعة النساء والشباب. هؤلاء الشباب تم استبعادهم من قبل قائد الجماعة بمجرد ما يصلون إلى سن تثير غيرته. والمسلمة الثانية هي لروبرتسون سميث المتمثلة في أن الأضحية هي العنصر الأساسي للعبادات القديمة، التي تقوم على قتل الحيوان الطوطم.

اسهام فرويد الشخصي يتعلق بعقدة أوديب Oedipuskomplex: الرغبة جنسيا في الأم وكراهية الأب. في بداية الانسانية هؤلاء الشباب الذين كانوا مستبعدين من قائد الجماعة اجتمعوا وقتلوا الأب، والتهموه وتقاسموا النساء التي كانوا محرومين من التمتع بها.

وفعل القتل والتهام الأب هو فعل طبيعي لدى آكلي لحوم البشر. الأب المقتول كان يمثل بالنسبة لهؤلاء الشبان المثال الذي يحتذى. بأكله يتطابقون معه وكل واحد منهم يأخذ قسما من قوته. الوجبة الأولى والحفل الأول ربما الإنسانية ستغدو تجديدا وتذكارا لهذا الفعل المشهود والاجرامي الذي أسس أكثر من شيء، التنظيم الاجتماعي، المحرمات الأخلاقية والدين.

الأبناء يعيشون تناقضا وجدانيا: من جهة هم يحبون أباهم ومن جهة أخرى يكرهونه. محبة أبيهم تثير في نفوسهم الندم الذي يؤدي بهم إلى تحريم قتل الطوطم الذي هو البديل للأب، وهكذا نشأ الطابوهان الأساسيان للطوطمية. تحريم قتل الطوطم وتحريم الزواج من نساء القبيلة التي تنتمي إلى نفس الطوطم. هذان الطابوهان يشتركان مع الرغبتين المكبوتتين بعقدة أوديب.

الطوطمية كدين ترتبط بطابو تحريم قتل الحيوان الطوطم. التضحية بالطوطم تمثل وسيلة للتخفيف من الذنب وفي نفس الوقت التأكيد على استقلالية الأبناء بواسطة قتل الأب الذي يتجدد دون توقف. هذا الميل الأخير هو الذي يهيمن.

فرويد يذهب بعيدا، الإله ليس بالنسبة له سوى الأب الشهواني المؤله، في التضحية الطوطمية الإله ذاته يكون ذبيحة. هذه التضحية بالإله الأب هو التحريم الأقدم والأصلي للبشرية، إنها التضحية التي قدمها المسيح بواسطة موته الدموي.

الطوطمية نظام يحل لدى بعض الشعوب البدائية في استراليا وأمريكا محل الدين ويقدم أساسا للتنظيم الاجتماعي. الاسكتلندي ماك لينان أثار عام 1869 الاهتمام العام بظاهرات الطوطمية التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من الطرائف، وذلك عندما عبر عن ظنه

بأن عددا كبيرا من العادات والتقاليد في مجتمعات قديمة وحديثة مختلفة يتوجب النظر إليها كرواسب عن حقبة طوطمية. ومنذ ذلك الوقت اعترف العلم بأهمية الطوطمية على أوسع مدى.

يقول فونت "إن الحضارة الطوطمية كونت في كل مكان مرة ما المرحلة التمهيدية للتطورات اللاحقة والمرحلة الانتقالية من الحالة البدائية إلى عصر الأبطال والالهة"[1].

لقد لخص رايناخ في عام 1900 الشريعة الطوطمية في اثني عشرة مادة. مقدما إياها كإنجيل للدين الطوطمي.

1-لا يجوز قتل أو أكل حيوانات معينة، إنما يربي الناس أفرادا من أنواع هذه الحيوانات ويعتنون بها.

2-إذا صادف ومات واحد من هذه الحيوانات، يقام عليه الحداد ويدفن بنفس المراسم التي تقام لفرد من القبيلة العينة.

3-قد يسري حظر الأكل على جزء معين فقط من جسم الحيوان.

4-إذا تحتم على البدائي بحكم الضرورة أن يقتل الحيوان المحمي، فعليه أن يستغفر منه وأن يحاول التخفيف من جرم انتهاك التابو، من جريمة القتل، بتعاويذ وشعوذات متنوعة.

5-إذا ضحي بالحيوان بمقتضى الشعائر البدائية، يجري البكاء عليه بشكل احتفالي.

6- يرتدي الناس في بعض المناسبات الاحتفالية في الطقوس الدينية، جلود حيوانات معينة، وحيثما تكون الطوطمية ماتزال قائمة تكون هذه الجلود لحيوانات طوطمية.

7-يسمي القبائل والأشخاص أنفسهم بأسماء الحيوانات وبالتحديد اسماء حيوانات الطوطم.

8-تستخدم قبائل كثيرة صور الحيوانات رايات لها وتنقش بها أسلحتها، كما يرسم الرجال صور الحيوانات على جسدهم أو يوشمون بها جلدهم.

9-يعتقد البدائيون، أن الطوطم، إذا كان من الحيوانات المخيفة الخطرة سوف يرحم أفراد القبيلة المسماة باسمه.

10-يحمي حيوان الطوطم المنتمي إلى القبيلة وينذرهم من المخاطر.

11-ينبيء الطوطم أتباعه بالمستقبل ويخدمهم كقائد.

12-غالبا ما يعتقد أفراد القبيلة الطوطمية بأنهم يرتبطون مع حيوان الطوطم برابطة الأصل المشترك[2].

في سبيل تكوين صور صحيحة عن سمات الطوطمية نتجاوز نقائص الكاتب السابق ونتوجه صوب فريزر الذي خص الطوطمية بأربعة مجلدات "الطوطمية والزواج الخارجي".

لقد كتب فريزر: " أن الطوطم شيء مادي يكن له المتوحش احتراما خرافيا، لأنه يعتقد أنه توجد بين شخصه وكل فرد من هذا النوع صلة خاصة جدا. الرابطة بين الإنسان والطوطم متبادلة فالطوطم يحمي الإنسان والإنسان يبرهن على احترامه للطوطم بأساليب مختلفة، على سبيل المثال لا يقتله، إذا كان حيوانا، ولا يقطفه إذا كان نباتا. ويختلف الطوطم عن الصنم، بأنه خلافا للصنم ليس شيئا مفردا على الاطلاق بل دائما نوع، عادة نوع الحيوان أو النبات ونادرا ما يكون مجموعة من الأشياء الجامدة، والأندر من ذلك أن يكون أشياء اصطناعية"[3].

ويمكن للمرء أن يميز بين ثلاثة أصناف من الطوطم على الأقل:

1-طوطم القبيلة الذي تشترك فيه القبيلة بأجمعها والذي ينتقل بالوراثة من جيل إلى جيل.

[1]-سيغموند فرويد، الطوطم والطابو، تر. بوعلي ياسين دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ظ1، 1983، ص123-124 .

[2]-المرجع السابق.

[3]-نفسه، ص 126.

2-الطوطم الجنساني الذي ينتمي إليه جميع الذكور أو جميع الإناث في القبيلة مع استبعاد الجنس الآخر.

3-الطوطم الشخصي الذي يختص شخصا مفردا ولا ينتقل إلى خلفه.

إن طوطم القبيلة هو موضوع تبجيل من قبل مجموعة من الرجال والنساء الذي يتسمون باسمه. والذين يعتبرون أنفسهم سليلين قرباء بالدم لسلف مشترك. وكما يؤمنون جميعا بنفس الطوطم فهم يرتبطون مع بعضهم ارتباطا وثيقا. من خلال واجبات مشتركة متبادلة.

"إن النظام الطوطمي نظام ديني، كما هو نظام اجتماعي في جانبه الديني يقوم على صلات الاحترام المتبادل والرحمة المتبادلة بين الانسان وطوطمه، وفي جانبه الاجتماعي يقوم على التزامات أفراد العشيرة تجاه بعضهم وتجاه القبائل الأخرى".

ولكن الانتقادات التي توجه إلى فرويد تبطل نظريته. فالطوطمية فيما يذهب شميدت لا تمثل الشكل البدئي للتطور الثقافي والانساني، إننا نعرف سلسلة كاملة من الشعوب التي تجهل الطوطمية والنظام الأمومي والتي تعتبر الشعوب الأقدم: البيغماويد، أقزام أسيا وافريقيا، استراليو الجنوب الشرقي. الإينوسAinos، الاسكيمو البدائيون، الكورياك الساموياد للشرق الأقصى، سكان كاليفورنيا بالوسط الشمالي، الالجونكان البدائيون في شمال أمريكا، الفيجيون في أقصى الجنوب الأمريكي. وحتى باعتبارها مرحلة أكثر حداثة في التطور وفي فترة ازدهارها، الطوطمية لا تبدو أبدا كنظام عالمي وأن كل الشعوب اجتازتها. جرايبنر أثبت أن النظام الأموي لا يؤخذ من الطوطمية[1].

نظرية دوركايم في الطوطمية:

بالنسبة لدوركايم الطوطمية عبادة سابقة على الطبيعانية والاحيائية، وكلمة طوطم لم تظهر الا في نهاية القرن الثامن عشر على يد مترجم هندي هو لونغ J. Long وماكلينان هو أول من حاول ربط الطوطمية بالتاريخ العام للإنسانية. لقد جهد في البرهنة ليس فقط على أن الطوطمية كانت ديانة ولكن على أن من هذه الديانة ظهرت معتقدات وممارسات نجدها في الأنساق الدينية المتقدمة جدا، وذهب إلى حد اعتبارها مصدر العبادات الحيوانية التي يمكن ملاحظتها لدى الشعوب القديمة.

ومن جهة أخرى الطوطمية كما لاحظ المتخصصون في الدراسات الأمريكية كانت أساس تنظيم اجتماعي محدد هو تقسيم المجتمع إلى عشائر. مورغان لاحظ ذلك في قبائل الهنود وفيزون وهوويتHowitt لاحظ وجود التنظيم الاجتماعي نفسه في أستراليا.

الأشياء التي تصلح طواطم تنتمي في أغلب الحالات إما إلى مملكة النبات أو إلى مملكة الحيوان ولكن بشكل خاص إلى المملكة الأخيرة. أما بالنسبة للأشياء الجامدة فهي نادرا ما تستعمل. من بين500 اسم طوطمي أحصاها هوويت في قبائل الجنوب الشرقي من أستراليا هناك 40 فقط منها لا تحمل أسماء النباتات والحيوانات، وتتمثل تلك الأسماء في السحب والأمطار والجليد والقمر والشمس والرياح والدخان والماء والبحر...

والطوطم ليس فردا معنيا بل هو نوع أو صنف فليس هذا الكنغر أو هذا الغراب بالذات ولكن أي كنغر وأي غراب بشكل عام، ولكن أحيانا يكون شيئا معينا بالذات وأحيانا يكون الطوطم أحد الأجداد الميتيقيين[2].

الطوطمية ديانة معقدة لا كما تبدو لأول وهلة. ومن أجل أن تكون ديانة كباقي الديانات يجب أن تقدم الطوطمية تصورا للكون، و" إذا استطعنا- يقول دوركايم -أن نجد أصل المعتقدات الطوطمية نكون محظوظين في اكتشاف في الوقت نفسه الأسباب التي أدت إلى ظهور العاطفة الدينية لدى الإنسانية"[3].

[1] Emile Durkheim, les formes élémentaires de la vie religieuse, PUF , Paris , 2005, P. 139
[2] Ibid ,p.246.
[3]

بالنسبة لتايلور وويلكن Wilken الطوطمية تشتق مباشرة من ديانة سابقة إنها بالنسبة لهما شكلا خاصا من عبادة الأسلاف. بالنسبة لدوركايم الطوطمية الفردية التي يتسمى بها الفرد هي الوجه الفردي للعبادة الطوطمية. إذا كانت هي الواقعة البدائية يجب القول أن الدين ولد في وعي الفرد، وأجاب قبل كل شيء على مطامع فردية، وأنه لم يأخذ شكلا جمعيا إلا في مرحلة تالية.

والطوطمية الفردية تفترض الطوطمية الجمعية، فالطوطم الفردي يمثل قسما أو وجها خاصا من الطوطم الجمعي. إذ الطواطم الفردية هي طواطم فرعية. وهكذا فإن الشكل الأول للدين الفردي الذي نصادفه في التاريخ يبدو لنا ليس المبدأ الفعال للدين العمومي، ولكن العكس وجها بسيطا لهذا الأخير.

والانتقادات التي وجهناها لفريد تنطبق على دوركايم. بالإضافة إليها يذهب فريزر وأندو لانغ إلى عدم اعتبار الطوطمية ديانة. ففريزر يذهب إلى القول أن الطوطمية لا تحتوي على كائنات روحية ولا على الصلاة ولا التضرع ولا القربان، فهي بالنسبة له ليست سوى نظام سحري.

أما لانغ فهو يقول" لا أجد في أستراليا أي مثال عن الممارسات الدينية مثل تلك التي تقوم على الصلاة وأكل أو دفن الطوطم".[1] ومفهوم الالهة تكون حسب لانغ خارج النظام الطوطمي.

لكن دوركايم يرد على فريد ولانغ بالقول إنه يكون ثمة دين بمجرد أن يتميز المقدس عن الدنيوي والطوطمية هي نظام واسع من الأشياء المقدسة. ومن جهة أخرى فإن الطوطم يرمز الى الإله والى العشيرة أو المجتمع أليس الإله والمجتمع شيئا واحدا[2].

مختلف الكتاب الدين ينتمون للنظرية الطوطمية لاحظوا أن العلاقة ليست بين الطوطمية والدين بل بينها وبين السحر وهكذا ولدت النظرية السحرية التي يعتبر فريزر أول الداعين إليها.

السحرية le magisme:

النظريات الفكرية والإرادوية: هذه النظريات تذهب إلى القول أن السحر سابق على الأرواحية، فهذه الأخيرة غائبة أو أنها لا تلعب إلا دورا ضئيلا. وسنرى أن هناك علاقة بين الطوطمية والسحر.

أول قائل بالنظرية السحرية هو كينغ J. H. King وذلك في كتابه حول المافوق طبيعي The supernatural, its origin, nature, and évolution، هو الأول من أقام السحر قبل الأرواحية كنقطة انطلاق للتطور الديني. كتابه ظل إلى غاية اليوم، العرض الممتاز للنسق حيث أن برهنة لم تقم بدون شك على قاعدة واسعة فقط بل على منهج صارم. كتابه عندما طبع لم يلتفت إليه أحد. الأرواحية كانت قوية وكينغ كان متقدما جدا على وقته. حتى بعد ثماني سنوات مع بداية القرن 20. نظريته أعيدت تحت أشكال أدنى مما أعطاها هو ذاته. كتابه استمر الجهل به، اكتشافه تم من قبل ولهالم شميدت الذي اعتمد عليه في كتابه "أصل فكرة الله".

كينغ يميز في العالم بين قوى عقلية (الانسانية والحيوانية) وقوى غير شخصية (فيزيائية، كيميائية).

من الأولى يستخلص الانسان مفهوم الروح ومن الثانية مفهوم السحر. هذان المفهومان يرتبطان بعدة طرق.

مع ذلك مفهوم السحر هو الأقدم. الاحكام والممارسات السحرية تظل هي الأولى عنما يجد السير العادي للأشياء في الطبيعة أو داخل الذات نفسها، نفسه معطلا بشيء غريب. هذا الشيء الغريب يصنف على أنه خير أو شر، مفيد أو شؤم ويصبح موضوعا للرغبة أو الخوف، الحالة الأخيرة هي الأكثر انتشارا والأكثر جذبا. الانسان تكوّن لديه الشعور بالوجود أمام مجهول، حيث لن تكون لديه أية وسيلة

[1] Ibid , p.262.
[2] Ibid, p.295.

للعمل، وخوفه يتطور إلى ذعر، هذه التجربة الأولانية للنافع والمشؤوم تغدو الجرثومة الأولى لكل دين، نحن في مرحلة حيث القدرة على الاستدلال لا زالت ضعيفة وحيث أن الإدراك المباشر للأشياء لا يثير في الذهن سوى ارتباطات فظة. عندما اعتقد الانسان أنه اكتشف سبب هذه السعادة أو هذا الشر، استعمل وسيلة لتجديد الأولى وابعاد الثاني. هنا بدأ السحر.

في البداية كل واحد كان له ساحره الخاص، وحدث فيما بعد أن شخصيات أكثر قوة طوروا قوى سحرية معتبرة جدا. انه عصر السحرة المحترفين الشامان الذي يبدأ. كينغ لا يسأم من التشديد على أن بعض العمليات السحرية لا تستدعي للعمل أي روح. القوة السحرية تنتمي إلى الحقائق المادية ذاتها، لدينا اذن سحر مادي سابق على الأرواحية، كينغ، الأول والأكثر تمثيلا للنظرية السحرية، وهو الأول أيضا بالنسبة للنظرية الفكرية للسحر، انشغاله الأول كان تفسير تكون الأحكام السحرية وفي أي اتجاه تتطور المحاولات، التي يعطيها الترجيح، لادراك أسباب هذه الاحساسات الأولية للخير والشر وأن يصبح سيدا عليها. فريزر هو أول منظر للسحر وهو أيضا تعقلي Intelectualiste لقد عرض تصوره للسحر في كتابه الضخم "الغصن الذهبي" الذي أعطاه عنوانا فرعيا دراسة في السحر والدين، ميز فريزر بين الدين والسحر واعتبر هذا الأخير منتميا إلى مستوى عقلي أدنى، وقد سبق الدين في أي مكان. براس K. TH. Press دافع عن تأويل تعقلي خالص للسحر، باستبعاد كل عامل عاطفي، براس يقترح الدفع بالتحليل الما قبل الأرواحي إلى أبعد نقطة قدر الامكان، إلى غاية الانبثاق الأول للإنسان فوق الحيواني. الغباوة البدائية للإنسانية هي مصدر الدين والفن، كلاهما يسبقان بالسحر الذي جاء ليتجاوز مرحلة الغريزة لدى الانسان (الغريزة هي التي كانت تحكم الانسان في مرحلة الحيوانية). لدى الانسان البدائي السحر وتتبع هدف عن طريق الفعالية الواقعية يختلطان. التمايز لا يحدث إلا في فيما بعد.

فيركندت A. Vierkandt استلهم هو أيضا من المفهوم التعقلي في دراسته عن بدايات الدين والسحر، ميز بين السحر عن قرب والسحر عن بعد، الأول أقدم من الثاني. وميز أيضا بين سحر الدفاع وسحر الهجوم، في تحليله للعلاقات بين السحر والدين فيركندت يبدأ بالعبادة. الصلاة لها أصل سحري.

واشبرن هوبكينز E. Washburn hopkins هو صاحب كتاب " أصل وتطور الدين" (1924)، نجد فيه نقدا للأرواحية وعبادة الأسلاف لتايلور وسبينسر على التوالي (النظرية الانجليزية)، ونقد طبيعانية مولر (النظرية الالمانية) وسحرية فريزر وجمعوية دوركايم (النظرية الفرنسية) والتي يرفضها كلها.

حسبه الانسان البدائي يجهل التمييز بين المادة والروح، ولكنه يمنح كل الأشياء قوة سحرية. ومع ذلك لم تكن لديه قوة سحرية مشتركة مثل المانا. كل شيء كانت له قوته الخاصة. نمر بعد ذلك الى أصل الدين.

إنه يرفض النظريات التي حاولت تفسيره فقط باللاعقلي وبواسطة العاطفة، الفاعلية العقلية كان لها نصيبها.

مفهوم الشخصية الكلية سابقة على التمييز بين الروح والجسد كما تتصورها الأرواحية، لقد تم ترجمتها بالشخصية. في الأصل لم يكن هناك أي تمييز بين الديني واللاديني، بين الطبيعي والمافق طبيعي.

كل النظريات التعقلية للسحر التي أتينا على ذكرها تفترض مرحلة ما قبل عقلية للفكر الانساني، تضعها بالتطابق مع الفرضية التطورية في المرحلة التي اعقبت انبثاق الانسان بعد مرحلة الحيوانية البسيطة. براس يعتبر هذه المرحلة الماقبل عقلية كمرحلة أولى للإنسانية.

النظريات الأرواحية والسوسيولوجية للسحر (موس وهوبير ودوركايم).

لم يقدم فريزر نظرية ارادوية وسوسيولوجية للسحر رغم أن كان منشغلا بجمع الوقائع عن الطوطمية وظل محتفظا بتأويل تعقلي له، لا أحد مثله فحص العلاقة الوثيقة بين الطوطمية والسحر، اكتشاف سبينسر وجيلن لأستراليي الوسط، مع تعدد طقوسهم السحرية المرتبطة

ارتباطا وثيقا بطوطميتهم الخاصة. يبدو أنها فرضت عليه التفسير الارادوي. ولكن الانعطاف الفكري لديه استغرق وقتا طويلا لدرجة أنه لم يتمكن من تبني موقف جديد. فيما يتعلق بالمشاكل الأساسية كان تأثير الاكتشافات الاسترالية على عدد معين من العلماء الفرنسيين مختلفا تماما. في بلد أوغست كونت كانت النزعة السوسيولوجية في الهواء إذا جاز القول. من عام 1896 وهو التاريخ الذي أسس فيه السنة السوسيولوجية، دوركايم رئيس المدرسة السوسيولوجية الجديدة عرض برنامجه في مقال بعنوان:" في تعريف الظاهرة الدينية". هذا البرنامج ميزته الإشادة بالاجتماعي الذي يذهب إلى حد النفي العملي للفردي.

نفس الخاصية توجد في الدراسة الأولى المهمة المكرسة بواسطة المدرسة الجديدة للسحر وعلاقاته بالدين. الأمر يتعلق بالمذكرة المطبوعة بواسطة تلميذي دوركايم الرئيسين وهما هوبير وموس تحت هذا العنوان: ملخص نظرية عامة في السحر[1].

السحرية: النظريات الانفعالية:

يعتبر ماريت R. R. Marett مؤسسا للسحرية ولكننا ذكرنا فيما سبق أن كينغ هو المبتكر الحقيقي للسحرية والذي كان تعقليا. يجب أخذ مقال ماريت حول الدين ماقبل الأرواحي نقطة انطلاق. في نقطة الانطلاق للدين يضع ماريت شعورا عاما من الخوف الاجلالي تجاه القوة الواسعة ولكن المهيبة التي يراها الانسان في الأشياء المحيطة به، الدين له بدايات، الدين له بدايات، إنه يتوجه إذن إلى شيء غير مدرك أو ما فوق طبيعي والذي نحسه من غير أن نفهمه.

إنجليزي آخر هو سيدني هارتلان E. Sidney Hartland والذي بعد سنوات أعاد وطور النظرية الانفعالية للسحر.

هارتلاند ينطلق من نفس النقطة التي ينطلق منها ماريت، الخوف التبجيلي، الاكبار، الانطباع الذي يكون لقوة تختفي وراء الظواهر مع ذلك إنه يتعلق باستمرار بفكرة شخصية بدائية والتي ذكرها ماريت باختصار، مبكرا جدا، هذه الظواهر تم تفسيرها كتجليات شخصية منحها البدائي حاجات وأفعالا مماثلة لحاجاته وأفعاله. هذه القوة أو الانفعال مارسها الانسان البدائي تارة من أجل كسبها وتارة من أجل السيطرة عليها ومراقبتها.

الانسان البدائي يكسب أو يتحكم في هذه الشخصيات الفوق انسانية المافوق طبيعية بواسطة العمليات التي يستخدمها تجاه الشخصيات البشرية التي تحيط به، أي بواسطة الكلمات وبواسطة الافعال. هذه الكلمات والأفعال للإنسان تمنح حسب الحالات خاصية الطقوس السحرية أو الطقوس الدينية، انها دينية عندما تتجه إلى كائنات لا نستطيع التقرب منها الا بخوف واحترام، وسحرية عندما تتعلق بكائنات نعتقد بإخضاعها.

النظريات الانفعالية الحديثة:

يتزعم هذه النظريات بيت K. Beth ضد المنظرين الأوائل للسحر، فريزر وبراس وماريت، يشد على التمييز الاساسي بين السحر والدين ويرفض افتراض التبعية الاصلية للثاني بالنسبة للأول.

كلاهما السحر والدين ينحدران من حالة سابقة، سابقة على السحر وعلى الدين أيضا، إنها فترة مجهولة، في هذه المرحلة لا شيء يمنع من ظهورهما مترافقين.

[1] –ينظر كتابنا : بن معمر عبد الله، ميادين الأنتروبولوجيا الجزء الأول، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2021.

الدين كالسحر نقطة انطلاقهما شيء لا شخصي، فكرة قوة مجهولة، قوة تجريبية، مافوق طبيعية، هنا وهناك، ولكن ليس لدى جميع الشعوب، هذه الفكرة تجسدت بتأثير عملية فاعلة أكثر فأكثر من الشخصية بإله أعلى. الإيمان الأولي بهذه القوة لم يكن يعد ايمانا في الله بالمعنى الدقيق للكلمة. ولكن يمكن أن يعطي ميلاد ايمان في الله من نظام أعلى.

في كتابه حول تكون الاعتقاد في الله، سودربلوم N. Soderblom يتفق على كثير من النقاط التي تخص النظرية التعقلية للسحر، مع ذلك على الأسئلة الأساسية فانه يتبنى وجهة النظر الانفعالية.

ضد بيت يذهب سودربلوم إلى القول أن السحر والدين شكلا في الأصل كلا كان من غير الممكن الفصل بينهما. مع ذلك نلاحظ لدى البدائيين البدايات الأولى للتمييز. هذا التمييز يظهر مع الاعتقاد في الهة شخصية عظيمة، يسميها ب Ureheber بمعنى خالقين بالمعنى الواسع، حول هذه النقطة أخذ في الاعتبار أكثر من بيت الاثنولوجيا التاريخية.

فقط هؤلاء الخالقون ليسوا حسبه شيئا أكثر من اشباع مرتبط بواسطة الانسان البدائي بالحاجة التي وحدها تفسير أصل الأشياء. إنهم ليسوا آلهة حقيقية. ليس هناك بعد الحديث عن إله واحد. غياب كل عبادة لا يسمح بالحديث عن الدين.

مع أوتو R. Otto الانفعالي يتأكد بوصفه لا عقلاني. منذ الصفحات الأولى من كتابه " فكرة المقدس 1917 يعيب على النظرية التعقلية للدين أنها أهملت العنصر الأساسي الذي هو اللاعقلاني. هذا اللاعقلاني هو بشكل خاص المقدس.

المقدس والأخلاق هما مفهومان مستقلان عن بعضهما البعض. مفهوم الأخلاق لا يرتبط بمفهوم الدين، المقدس هو Numinosum الإلهي، الذي يتعلق بالإدراك العقلي ولكنه شعور وانطباع.

التطور الديني حسه اتبع المراحل التالية: في نقطة الانطلاق توجد بعض الأشياء الفردية التي هي بمثابة مداخل للدين. إنها مفاهيم الطاهر والنجس، الاعتقاد في الموتى وعبادتهم الاعتقاد في الأرواح وعبادتهم، السحر، الحكايات، الأساطير، عبادة أشياء الطبيعة، الفكرة الخاصة بالقوة، الفيتيشية، الطوطمية، عبادة الحيوانات والنباتات، الاعتقاد بالشياطين، وتعدد الاعتقاد بالشياطين، كل شيء ملازم ببساطة لنوع من النومينو (الإلهي). فيما بعد هذه المراحل الما قبل دينية ظهر تصور لا زال نصف لا شخصي هو الشيطان. الصعود النهائي من الخوف من الشياطين إلى عبادة الالهة الشخصيين ثم إلى عبادة الله تضمن عدة مراحل متتالية، العنصر العقلاني والشخصي لم يستخلص إلا بالوصول إلى تطور لا يمكن قياس فترته.

أوتو يتفق مع بيت حول مفهوم مرحلة سابقة غير دينية بالكامل.

ووبرمان G. Wobberman أحد الأوائل الذين أدخلوا إلى ألمانيا براغماتية المدرسة الأمريكية لعلم النفس الذي أقامه وليام جيمس. لقد استطاع أن يتجنب الكثير من الأخطاء فيما يتعلق بأصل الدين وأعطى الكثير من الحلول للمشكل.

ووبرمان عالج مسألة الالهة الكبار البدائية طويلا. لقد أبعد رأي تايلور الذي رأى فيه نتاج الانجيلية المسيحية. الدين خرج صدفة من الاعتقاد في المانا يمثل لدى البدائيين حالة نادرة، هامشية أو انتقالية. لقد استبعد رأي دوركايم وفريزر ولوبا حول أسبقية السحر. ولكن ذلك من أجل الافتراض النهائي لعلاقتهما الوثيقة الدائمة، وتداخلهما المتبادل، لقد كتب قائلا:" الكم الكثير من الوقائع الملاحظة يكشف الحضور المتزامن للسحر والدين، التاريخ لا يعرف السحر بدون دين، ولا خارج المسيحية الدين من غير سحر"[1].

[1] - P. W. Schmidt , Origine et évolution de la religion , op. cit., p. 119.

ملاحظات حول النظريتين الانفعاليتين: إذا أخذنا في المجمل، هذه النظريات تستحق أولا الثناء لأنها قدمت خدمة مزدوجة ظاهرة بوضوح حسب فيركاندت A. Vierkandtأولا لأنها تمثل التخلي الجزئي عن التطورية القديمة وتفترض الخاصية المستقلة للدين، التي هي بدائية ولم تخرج بفعل التطور عن معطى ما قبل ديني ولا ديني.

والشيء الثاني أن هذه النظريات وجهت الانتباه الى العنصر العاطفي للدين، عنصر لا يغيب كلما تم الحديث عن الدين الحي.

ولكن هذه النظريات استبعدت تماما العامل العقلاني في تحليلاتها للحياة النفسية وللدين، واستبعدت بشكل خاص في دراستها لأصول الدين كل اعتبار لدى الانسان للبحث عن الأسباب وهنا يكمن العيب الأول للنظرية الانفعالية.

العيب الآخر للنظرية الانفعالية يتمثل في ارجاعها للدين المنبثق كشيء ليس شخصية ولكن شيئا أو على الأقل حقيقة غير محددة، ويستنتج هذا طبيعيا أن أصل الاخلاقية لا يمكن أن يتطابق مع أصل الدين. شيء في الواقع لا يمكنه أن يحمل قوانين أخلاقية.

خطأ آخر للنظرية الانفعالية يتمثل في الخاصية النفسية للنظرية الانفعالية وتطبيقها الثابت لتحليل العواطف.

في هذا التحليل، من السهل في إطار تحليل الأفكار، القيام بتجريد الموضوع، أو بالأحرى، عندما يتعلق الأمر بالعواطف، الموضوع وحالاته يأخذان أهمية تستبعد إلى مستوى ثان العوامل الموضوعية. يكون العكس تماما عندما يتعلق الأمر بالأفكار. أنصار النظرية الانفعالية وجدوا أنفسهم هكذا منقادين إلى اعتبار بعض الحالات النفسية، وبعض العواطف كمكون أساسي للدين.

نقد عام للنظرية السحرية:

لقد ارتكب العلماء الذين قالوا بنظرية أسبقية السحر على الدين أخطاء كثيرة ولكنهم ساهموا بطرق مختلفة في تقدم العلم، وهذا من الواجب الاعتراف به.

كينغ كان معه الحق عندما بحث في أصل السحر في ادراك الجديد. الغريب الذي من جهة لا يرتبط بالمعطيات المألوفة من قبل ومن جهة أخرى يقف في وجه الانتباه.

هذا الادراك يحدث صدمة عقلية التي بدورها تحدث ترابطات إلى حد ما ثابتة. بطريقة أو بأخرى، فيما يتعلق بالسبب أو المسبب أو بالاثنين معا، الظاهرة توضح مع أشياء أخرى. من النظرة الأولى، تفسير دوركايم الذي أعاده هوبير وموس يبدو جديدا تماما. انه يعطي كمصدر للسحر الحاجة الاجتماعية التي يخدمها الجميع.

تفسير كينغ كان تعقليا. أما تفسير دوركايم فهو بالأحرى إراداوي. أهمية تفسير هوبير وموس تكمن في اعطائه أهمية لإشباع حاجة، ليست عقلية فقط، ولكنها حاجة الارادة أيضا.

ماريت وفيركاندت من جهتهما لفتا الانتباه إلى مصدر آخر للتصورات السحرية، عندما درسا دور الحركات التي بفضلها يتعبر الانفعال الحي.

الخاصية التأملية للنظريات السحرية هي العيب الكبير لها. وهذا بسبب غياب الدراسة التاريخية، مراحل التطور ونظام بروزها في الزمن تم تحديدها بمعايير سيكولوجية فقط، والحال أن هذه المعايير عندما تطبق على حالات ملموسة، لا يمكنها أن تكشف سوى عن الامكانيات بمعنى السبل التي تسير فيها الحركة التطورية. في الواقع البرهنة الايجابية الصائبة والدقيقة لهذه النظريات غير موجودة، والتاريخ الثقافي يكشف لنا أن بعض الشعوب لم تمارس السحر أو مارسته بشكل أقل، الأقزام الذين ينتمون إلى الطبقات الاثنولوجية الأكثر قدما لم يمارسوا السحر إلا في حدود ضيقة جدا، وكذلك الإسكيمو البدائيون، والكورياك كان لديهم السحر أقل، وخاصة السحر الأسود مما كان لدى جيرانهم، ولدى

الساموياد والأينوس Ainos كان السحر متطورا أقل لديهم وذو مصدر متأخر وغريب. سكان كاليفورنيا بالوسط الشمالي والألجونكان كان لديهم سوى الأشكال البسيطة والدفاعية للسحر. وكذلك استراليو الجنوب الشرقي، والفيجيون يقدمون تطورا كميا وكيفيا ضعيفا للسحر.

ومن جهة أخرى كل هذه الشعوب التي توجد في مراحل الحضارات البدائية تعترف وتعبد كائنا أعلى شخصيا ويحوز صفات أخلاقية. وهناك من يعتبر أن ديانة هذا الكائن الأعلى سابقة على السحر.

هاتان الواقعتان، بمعنى الاعتقاد في كائن أسمى لدى الشعوب الأكثر قدما في الحضارة، والتطور الأقل للسحر لدى هذه الشعوب لهما أهمية معتبرة من أجل حل المشكلة النسبية لأصل الدين والسحر.

ولكن الطريقة التي عالجت بها التطورية اللاتاريخية مشكل السحر تقدم عيبا منهجيا يتدخل التاريخ الثقافي لإصلاحه.

إله السماء في نظريات القرن19.

الاله الأعلى للسماء في حضارة الرعاة الرحل:

حضارة الثقافة الصغرى الأموسية قدمت لنا الأرواحية فيما يذهب تايلور مصدرا لكل الأديان. وحضارة الصيد الأبوية الكبيرة قدمت لنا الطوطمية كمصدر حقيقي للسحر، يذهب عدد كبير من المنظورين إلى اعتبار الدين قد خرج منه وتميز عنه.

لم يبق لنا سوى دراسة حضارة بدائية هي حضارة الرعاة الرحل. هذه الشعوب لها شكل من الدين لا نصادفه بخصائصه في أي حضارة أخرى. إنه يقوم على الايمان باله اعلى للسماء وعلى العبادة التي تترجم هذا الايمان. ولكن فيما يؤكد شميدت هناك غياب للدراسة المقارنة لهذه الشعوب مع حضارات أخرى، فقط سنة 1922 أن ظهر كتاب بيتازوني Pettazzoni كرس للإله السماوي في اعتقاد الشعوب البدائية.

ما منع من الانتباه إلى هذا الاعتقاد في اله أسمى هو هيمنة النظريات التطورية بممثليها منظري الفيتيشية وعبادة الأسلاف، والأرواحية والطوطمية والسحرية، هؤلاء كانوا مختلفين على طول الخط ولكنهم متفقين على أن فكرة إله أعلى كانت غير مستساغة في تلك العقود الأولى من التطور الديني التي كانت أقرب إلى الحيوانية. ظهور فكرة الاله الأعلى فكرة متأخرة لم تظهر إلا في مراحل متقدمة من التطور.

الإله الأعظم لدى البدائيين

أندرو لانغ

أندرو لانغ Andrew Lang الاسكتلندي معروف أنه شاعر ومؤرخ وبشكل خاص مؤرخ أدبي وكاتب مقالات انجليزي في العصور الحديثة. ولانغ اهتم أيضا بالدراسات السوسيولوجية والميثولوجية والدينية. لقد وضع نفسه في الخط الأمامي للمدرسة الأنثروبولوجية المكافحة دون هوادة لسلطة ماكس مولر.

لانغ كان مقتنعا بمدرسة تايلور، وافترض أيضا دون تردد المذهب الذي حسبه التوحيد كان موجودا في كل مكان وتطور فقط عن الأشكال الأرواحية الدنيا. بعدما أطلع على وقائع جديدة ورأى الوقائع تتضاعف أمامه انتهى الى أن نظرية تايلور كانت غير جديرة بالقبول. وتكلم عن ذلك في كتابه "صناعة الدين" سنة 1898 في هذا الكتاب الذي طبع ثانية سنة 1900طور أفكارا نشرها قبلا في "السحر والدين" "الأسطورة، الطقس والدين"، "العرف والأسطورة" وفي كتابيه السوسيولوجيين " Social origins" و "سر الطوطم".

لانغ أكد أن قبائل الجنوب الشرقي لأستراليا هي التي قدمت له الدعامة الأساسية والأكثر صلابة لنظريته. نظرية لانغ لم تلاق سوى الرفض في البداية ونوعا من الصمت المزدري.

عمل لانغ يمكن تلخيصه في ثلاث نقاط:

1-لقد جمع مادة لازالت مجهولة ومدهشة حيث أن قسما جمعه بنفسه له مصادر قديمة والباقي جمع حديثا بواسطة ملاحظين آخرين. وقد دافع لانغ عن الأصالة الخارجية والداخلية لنظريته ضد كل الاعتراضات.

2-لقد برهن على تنافر وقائعه مع نظرية الأرواحية التي كانت مهيمنة في ذلك الوقت.

3-في مكان هذه النظرية التي قوضها من الأساس أقام نظرية جديدة.

وقد استقى لانغ مادته من عدة مناطق وعدة شعوب.

الاستراليون: من بين كل ممثلي جنسنا، الاستراليون يحتلون الدرجة الدنيا في التطور الفيزيقي والثقافي. إنهم لا يزالون في عصر الحجارة ولا يعرفون صناعة الفخار حتى الآن. لقد اعتمد لانغ على دراسات هوويت A. W. Howih التي تتعلق بالجنوب الشرقي من استراليا. اعتقد هوويت أن الاشكال العليا من الدين التي تم ملاحظتها لا نصادفها في باقي أستراليا.

بالدوين سبينسر وجيلين أكدا أنه رغم الدراسات المعقمة لم يوجد أي أثر لشكل عال من الدين في كل المنطقة المبحوثة من قبلهما وتحديدا لدى قبائل الأرونتا Aruntas. هؤلاء على العكس ملحدون بشكل كامل. ولكن حسب ستيهلوف M. Sthehlow فإنه حتى لدى القبائل التي تسكن جنوب شرق أستراليا توجد أشكال من الدين أعلى مما تم افتراضه إلى غاية الآن. في هذه القبائل هناك جانب سلبي يجب التنبه إليه.

1-روحنة الطبيعة، الأرواحية بعبارة أدق متطورة قليلا. ولا الشمس ولا بعض النجوم، ولكن لا كائن يشكل جزء من الطبيعة هو محل عبادة دينية مهما كانت.

2-الطوطمية ليست متطورة إلا بصورة أقل. القاعدة التي تحظر أكل الطوطم أو قتله لم تتوطد كقاعدة ثابتة، وليس هناك أي مكان لعبادة دينية للحيوان الطوطم.

3-غياب عبادة الأسلاف. لا توجد أي صلوات للأسلاف. وعبادة الأسلاف تصبح مستحيلة مع منع ذكر أسماء الموتى.

وعلى العكس نجد في كامل هذه المنطقة اشارات واضحة جدا على الاعتقاد في كائن أعلى، اعتقاد يجب اعتباره كنوع من التوحيد، هذا الكائن الأعلى هو في الآن عينه العادل والحارس والمنتقم من السلوك الأخلاقي للبشر وليس فقط في هذه الدنيا ولكن في الآخرة أيضا. إنه رحيم وخير، كان ذات يوم يسكن الأرض ولكنه يعيش اليوم في عالم آخر، حيث يرى كل ما يجري على الأرض. ليس هناك معابد ولا أماكن مكرسة لعبادته، وليس له صورة تجسده، لا تصنع له صورة إلا عند الاحتفال بالمعجزات ولكن يجب تحطيمها بعد ذلك مباشرة، ليس له إكليروس خاص.

لدى النارنييريسnarrunyeris هذا الكائن الأعلى يسمى نيروندييري nurrundere ومارتميري Martummére. لقد قام بكل شيء على الأرض وعلم الانسان كل الفنون مع الطقوس والمراسيم. هو الآن في السماء لا يذكر اسمه إلا بقدر من الاحترام.

قبائل جنوب غرب فكتوريا: الكائن الأسمى يحمل اسم بير مهيل Pirmeheal (أبوتا) إنه رجل بقامة فارعة، يعيش فوق الغيوم إنه خير ولا يعاقب أحدا. عندما نذكر اسمه يجب فعل ذلك باحترام، لدى الكيرني Kurnais لا يعرفون اسما اخر لهذا الكائن الأسمى سوى مانغان نغوا Mangan Ngoua (أيوتا). لدى تيدورا Theddoras اسم الكائن الأسمى هو داراملانDaramulun، النساء لا يعرفونه الا باسم بابدوغ Papdug أو بيانيان Bianban (مولاي)، لدى -hjd;واتيWathi-Wathi يأخذ اسم تاتابوليThathapuli. وتيلونغ Tulong لدى تاتاتيسTatahis. الورادجريس، والكاميلاروا والاولهوايس يسمونه Baiamé[1].

[1] P. Guillaume Shmidt , l'origine de l'idée de dieu , librairie aephonse picard et fils , Paris,1910, p.86.

الاندمان: إذا انتقلنا إلى أسيا فإن جزر الاندمان هي التي تستدعي الانتباه، وهم شعب متقدم نوعا ما عن االاستراليين. إنهم مقيمون ولهم معرفة بصناعة الفخار وبدرجات معينة من الزراعة، ولكن من وجهة النظر الجسمية فإنهم يوجدون في درجة من التطور بدائية جدا. من المؤكد إلى غاية الآن أن فرديتهم البدائية ظلت سليمة. بالنسبة لهم لا مجال للحديث عن التأثير الخارجي وخاصة التأثير الممارس من قبل المبشرين.

سكان جزر الأندمان لا يعرفون عبادة الأسلاف، ولا يقدمون القرابين أطلاقا لأرواح أسلافهم، الذين يحرمون ذكر اسمائهم، عبادة قوى الطبيعة كانت غريبة عنهم.

وعلى العكس إنهم يعرفون كائنا أسمى يحمل اسم بولوغا Puluga. إنه مثل النار ولكنه لا مرئي، لم يولد أبدا وهو خالد. عدا قوى الشر فإنه صانع كل شيء، العالم بأكمله وكل الكائنات الحية وغير الحية وحتى البشر، وهو يعرف حتى خواطر القلوب. وهو لا يرضي بالأفعال اللاأخلاقية مثل القتل والظلم.

وهناك صفات أخرى أعطيت له كزواجه من امرأة خلقها هو لنفسه من ذاته وله أولاد.

البوشمان: أحد الشعوب القزمة بإفريقيا. يؤمنون بكائن أسمى. فالهوتنتو الكائن الأسمى لديهم هو سيي كواب Ciikoab إنه خالق كل شيء. البنتوس وسود السودان الغربي اسم الكائن الأعلى لديهم هو نيومبي Nyambé، نزومبي Nsambi أنيومي Anyambi، أنزام Anzam ، نزام Nzam، ينام Nyam وبأسماء أخرى في مناطق أخرى.

في كل تلك الأسماء، جوهر مفهوم إله واحد تم الاحتفاظ له، إنه اله واحد، طيب، محسن يتميز عن باقي الكائنات، انه يسكن في السماء، خلق العالم والانسان.

هنود أمريكا الشمالية: الاله هنا هو آهون Ahon إله سكان فرجينيا. هذا الاله العظيم الذي يحكم العالم، الذي يجعل الشمس تسطع والذي خلق القمر والنجوم، رفيق الشمس. جزيرة فانكوفر الاله هو أهت Aht جوسكيها Joskeha وتويسكارا Twiskura لدى الهيرون والإيركوا، وميشايو Mishabo لدى الالغونكان. لدى السيو Sioux الكائن الأعلى يسمى نابي، انسان خالد وجد قبل أن تأتي الموت الى العالم.

نقد الأرواحية: يتساءل لانغ هل الشعوب البدائية تعتبر الكائن الأسمى روحا حقيقة؟ بالنسبة لنا منذ طفولتنا نكون تحت أفكار المسيحية، يبدو طبيعيا أن الله يجب أن يكون روحا، ولكن هل الأمر كذلك بالنسبة لتلك الشعوب؟ لا. في الغالب يحدث شيء مختلف. هذه الشعوب لا تنفي الطبيعة الروحية للإله، ولكنها لا تؤكدها اطلاقا. لم يطرحوا بعد هذا السؤال الميتافيزيقي. الله بالنسبة لهم كائن، كائن يوجد حقيقة. من المستحيل أن نكون عنه فكرة وعن الروح انطلاق من ظاهرة الموت. باعتبار أنه في كل مكان تقريبا يجري التعبير عن هذا الكائن أنه خالد أو أنه على الأقل موجود قبل أن توجد الموت. وإنه لا يموت أبدا. ولا مرئيته لا تأتي من طبيعته الروحية وإنما من بعده. لأنه يسكن بعيدا في السماء.

هكذا الفكرة الأساسية للنظرية الأرواحية، اسبقية مفهوم الروح من أجل بلوغ فكرة الله، تحظيء هدفها. ليس من الضروري أن فكرة الله تتطور انطلاقا من مفهوم الروح، كل هذه النظرية الجميلة تصبح لاغية.

العلاقة بين الدين والأخلاق لم تكن موجودة في المراحل الدنيا من تطور الدين. بالنسبة للانغ هناك علاقة بين الدين والأخلاق في التوحيد، وعليه فلا الأرواحية ولا عبادة الأسلاف تعدان نقطة الانطلاق لهذا التوحيد الذي وجدناه لدى تلك الشعوب الأكثر بدائية، لا بل

لدى كل هذه الشعوب البدائية ليس هناك قوانين أخلاقية فقط ولكن في كل مكان هذه القوانين تكون مسبوقة بإرادة الكائن الأعلى، الذي يسهر على ملاحظتها بواسطة علمه الكلي، حيث أنه هو الذي يجازي المطيعين ويعاقب العصاة في هذه الدنيا كما في الآخرة.

إذا تم ابعاد الأرواحية وعبادة الأسلاف فهل نعود الى نظرية الانحطاط؟ لانغ خصص فصلا لنظرية الانحطاط في كتابه السابق الذكر، ووصل إلى أن التطور الذي شهدته الأديان لدى الشعوب المتحضرة يعبر عن الانحطاط بالنسبة لديانة التوحيد الأولى.

بقي سؤال يجب طرحه: ما هو أصل تلك الاشكال الدينية العليا التي صادفناها لدى الشعوب البدائية، إذا لم تكن قد تطورت عن الأرواحية أو عبادة الأسلاف؟ لانغ يرفض أن يقدم جواب قطعيا وايجابيا: "معلوماتنا لا تكفي من أجل بناء نظرية علمية عن أصل الدين، وربما أنها لا تكفي أبدا. وراء الأعراق التي يجب اعتبارها الأعراق الأقرب للبدايات، توجد أخرى حيث الأسلاف مجهولون، منذ فكرة تتيه في ليل الزمان، كان هناك أناس مثلنا، ولكن أناس بخصال نفسية وعقلية وأخلاقية لا يمكن إلا أن نضع فرضيات بشأنها. لدى هؤلاء الدين يتكون في ظروف طبيعيا لا يمكننا معرفتها"[1].

ولكن نظرية لانغ في التوحيد الأولاني وجدت منتقدين لها. أهمهم هوويت وسيدني هارتلاند الخصم الأهم لنظرية لانغ، والذي وجه انتقاداته للانغ من حيث التطور العام للوقائع ومن حيث الوقائع ذاتها، ومن حيث النظريات. فهو يشك أن البدائيين الذي يعجزون عن العد فوق السبعة أن يتوصلوا إلى تلك التصورات المتعلقة بالكائن الأعلى، النقد أتاه أيضا من ماريت الذي تحدث عن الكائنات العليا للاستراليين في الجنوب الشرقي واقترح نظرية تفسر أصول تلك الكائنات.

لانغ يؤكد أنه لا يمكن الوصول إلى الدين في حالته الخالصة في كل مكان كان هناك اختلاط بين الميثولوجيا والدين، منذ أن كان لدى الانسان فكرة أن أشياء تم صنعها فإن فكرة صانع كان يجب أن تحضر إلى ذهنه بالضرورة. هذا الكائن الذي يفرض هيمنته، كان لا بد من أن تنسب إليه بعض الصفات كالأبوة والخير ومراقبة أخلاق أبنائه.

وبالنسبة لهذه الأخلاق ذاتها، كان من طبيعة الأشياء أن تطور الحياة الاجتماعية يؤدي إلى حتميتها.

هكذا ولد الدين من طبيعة الانسان الذي أشبع حاجاته العقلية والأخلاقية والعاطفية، إنه يمثل الايمان التأملي في قوة الانسان، والإيمان الأخلاقي في قوة تعاقب على سلوك الانسان والإيمان العاطفي في حب هذه القوة لأبنائها.

لانغ يؤكد العلاقة بين هذه العناصر الدينية العالية والميثولوجيا ذات النظام الأدنى. لدى الأعراق الأقدم التي نعرفها، نجد كشيء عادي كما في اليونان القديمة إلى جانب الإيمان في آب، إله أو صانع خالد، مجموعة من الأساطير الهزلية والبدائية والوهمية التي تتناقض بشكل غريب مع الخاصية الدينية الحقيقية لهذا الإيمان. يمكن القول مع هذا الإيمان الذي هو عقلاني والسامي حتى، أن هذه الأساطير على العكس، تعطينا الانطباع على أنها غير عقلانية ومنحطة. المسيحية نفسها لا تخلو من هذا الخلط بين العقلاني واللاعقلاني، بين الأسطوري والديني.

في الفترة البدائية الأولى، العنصر الديني يبرز في حالة من النقاء كبيرة جدا والأقل اختلاطا.

العنصران لازالا قابلين للفصل، فيما بعد، العنصر الأسطوري، الذي سيتطور دون توقف سينفذ داخل العنصر الديني حتى يحتويه بالكامل. ولكن من أين يأتي هذا العنصر المتدني ومن أين يعرف هذه القوة الداخلية من التطور التي تفرض نفسها أعلى من العنصر الديني. هنا يتحول لانغ أرواحيا ويرجع إلى تفسير أستاذة تايلور، هذه الخرافات والحكايات والأساطير تنتمي إلى مرحلة من التطور الروحي عرفته كل الشعوب والتي لا زالت تجتازها الشعوب المتوحشة.

[1] P. G. Shemidt , l'origine de l'idée de dieu , op.cit., p.106.

ولكن حتى هنا لانغ يختلف عن النظرية الأرواحية فهو لا يجعل من هذه المرحلة الأسطورية المرحلة الأولى للإنسانية، إنه لا يقول أن كل الشعوب بدأ من هنا، ولكنها كلها مرت من هنا. ثم إنه يمتنع عن التأكيد، حتى بالنسبة لهذه المرحلة، على الهيمنة الحصرية للعنصر اللاعقلي. لانغ يفسر فقط العنصر الديني ونقاءه بالانحطاط الذي حدث بعد ذلك.

الاعتراف المتدرج خلال القرن العشرين (20) بالاله الأكبر لدى البدائيين.

نقطة الانطلاق:

في سنة 1912 السنة ذاتها التي اختفى فيها لانغ طبع ولهالم شميدت W. Schmidt الجزء الأول من كتاب "أصل فكرة الله"، هذا الجزء مثل الطبعة الألمانية التي زيد فيها ونقحت في أعقاب مقالات بالفرنسية ظهرت في مجلة أنثروبوس خلال سنوات 1908-1910.

هذه المقالات بسبب الخاصية الدولية للمجلة التي نشرت فيها تلك المقالات، أذاعت الاعتراف بنظرية لانغ إلى درجة جعلت من الآن استحالة مرورها في صمت.

الاله الأعلى المعروف لدى عدد من الشعوب:

الاعتراف بالأقدمية البعيدة للكائنات العليا، الذي كان أولا بطيئا ولكنه في النهاية صار صريحا بواسطة أعمال عدد من المتخصصين، أغلبهم مستقلين لانغ، والذين في ميادينهم، اعترفوا بحضور الإيمان في كائن أعلى حقيقي.

الهندوأوروبيون: نجد هنا المتخصص في الهنود ومؤرخ الأديان فون شرويدر L. Von Schroeder أستاذ في جامعة فيينا، تلميذ لتايلور، ما قاده الى القيام بنفسه بالأبحاث المعمقة في ميدانه الخاص، وعرض نتائجه في كتابين صغيرين" الإيمان بكائن أعلى خيّر لدى الاريانس Aryens و"جوهر وأصل الدين" ويضاف إلى ذلك، الجزء الأول الذي ظهر فيما بعد لكتابه الكبير حول الديانة الآريينية، حيث عالج أسس الدين وألقى الضوء على وجود كائن أعلى لدى شعوب الارينس. وقد عزا إلى الدين مصدرا ثلاثيا: عبادة الطبيعة، عبادة الأرواح، والإيمان بكائن أعلى خيّر وخالق ولكنه تردد في الاعلان عن أقدمية هذه المصادر فتارة يصرح أن المسألة تبدو له غير قابلة للحل، وتارة يرجع إلى دراسات لاحقة من أجل إضاءتها.

هنود أمريكا: الموافقة التي منحها منذ 1906 بول إهنرايش Paul Ehrenreich لنظرية لانغ أوحت له بها الوقائع الأمريكية التي يعرفها جيدا، الموضوع الخاص لعمله كان حالة المنقذ، البطل المحضر والجد القبلي، تجاه الكائن الأعلى، ليس فقط أنه اثبت التميز بين هاتين الشخصيتين، ولكنه برهن أن الكائن الأعلى كان هو الأقدم وأن المنقذ بدا في العادة سوى مخلوقه الأول، والذي منه خرج باقي البشر.

رادان P.Radin أعاد وطور فيما بعد هذه الفكرة. نحو الفترة نفسها، أحد قدماء التأمركيةAmericanisme ، أستاذ بكاليفورنيا، كروبر A. C. Kroeber طبع سلسلة كاملة من المذكرات، ثم كتابا حول أنماط الحضارة الهندية بكاليفورنيا، حيث أكد أن قبائل وسط كاليفورنيا المعتبرين كأقدم شعب في كل أمريكا الشمالية. في دراستين خاصيتين، برهن على النقيض من تأكيدات الأرواحية والسحرية حول الظهور المتأخر للآلهة الكبار أن مفهوم الكائن الأعلى والخالق الحقيقي، يصادف لدى هذه القبائل الأكثر قدما، مع وضوح ودقة أعلى مما تقدمه قبائل أخرى، أكثر تقدما ثقافيا في شمال أمريكا، كل أعمال كروبر توجد الآن مجتمعه ومكملة في كتابه الضخم Handbook of the indians of california (1925).

الأقزام: دوكواترفاج A. de Quatrefages ولوري A. Le Roy استدعيا الانتباه بمؤلفاتهما حول الشعوب ذات الحجم الصغير التي تسكن وسط إفريقيا، وجزر الأندمان وشبه جزيرة مالاكا، وقدما لمحة عن ديانتها.

شميدت طبع سنة 1910 دراسة جامعة أكثر منهجية وأكثر عمقا، عن خصوصياتها الانتروبولوجية، والأرجولوجية والسوسيولوجية والسيكولوجية، والأنثروبولوجية والدينية، خلاصة أبحاثه تمثلت في أن الأقزام، في مجموعهم، يمثلون مرحلة التطور الانساني الأقدم التي يمكن أن تصل إليها الأنثروبولوجيا، والسابقة على مرحلة الاستراليين بالجنوب الشرقي ذاتها، وحديث جدا في مقال في مجلة هوكلاند Hochland دافع شميدت عن هذه الأطروحة ضد هجوم باتبرغ A. Padtberg.

ديانة الشعوب الأقزام تقدم فائدة خاصة تماما. بعدما تم الاشارة الى غياب شخصية الكائنات وقوى الطبيعة لديهم، والأرواحية، وعبادة الأسلاف والتطور الأقل للسحر مقارنة مع ما نراه لدى جيرانهم، أصحاب الحجم الكبير والمتقدمون ثقافيا عنهم، شميدت رسم لوحة عن مجموع أفكارهم الدينية.

"الاعتقاد في كائن أعلى هو السمة البارزة لديانة الأقزام. هذا الكائن الأعلى يبدو كخالق ورب للعالم"[1].

النظريات الأرواحية ونظرية عبادة الأسلاف والنظريات السحرية لا مجال لتطبيقها هنا. من غير المجدي الرجوع إليها من أجل اخراج التوحيد من الشرك السابق في الظهور. يمكن التفكير بعد استنفاد جميع الوسائل في تفسير سوسيولوجي. الكائن الأعلى سيغدو الانعكاس السماوي للقائد الأرضي للقبيلة. الفكرة ستكون مؤسفة بشكل خاص. أولا لأن الأقزام في مجموعهم لا يعرفون سوى قادة الأسر أو زيادة على ذلك جماعات صغيرة من العائلات. القبيلة تتضمن إذن عددا كبيرا من القادة بينما هم لا يعرفون سوى كائن أعلى واحد. ثم إن التطور السوسيولوجي هو أقل تقدما لدى الأقزام من سلطة القادة التي هي عموما ضعيفة ومحدودة. ولا يمكن بأي حال مقارنتها بالسلطة العليا والعالمية للكائن الأعلى.

موقف الأقزام تجاه الكائن الأعلى يترجم في العبادة الأكثر علوا التي تتمثل في الخضوع الأخلاقي.

الصلة بين الدين التأليهي والأخلاق تبدو لنا لدى الأقزام أكثر وثاقة وأكثر عمومية منه لدى أي شعب بدائي آخر، الكائن الأعلى يتميز بخاصية أخلاقية، فهو يثيب على الأفعال الحسنة ويعاقب على الاخلال بالقوانين الأخلاقية.

الساميون: البروفيسور بروكلمان D. G. Brockelman المختص في السامية طبع حول الله والأوثان عملا حيث بحث ميدانا وسيطا بين ميدان الشعوب الهمجية وميدان الشعوب المتحضرة. المشكل الذي شغله هو مشكل أصل التوحيد ما قبل الاسلامي، لقد استبعد فكرة استعارته من المسيحية أو اليهودية وبالمثل الفرضية التي تعزو الله للإله الاقدم هبل الذي كانت صورته موجودة في الكعبة.

ثم فحص رأي ولهوسن Wellhausen الذي حسبه الله هو اختراع اللغة العادية. كل قبيلة تتكلم عن إلهها الخاص، ستقول الاله، ببساطة ما كان ينتهي الى نسيان الفردانيات الالهية المختلفة.

بروكلمان لا يتبنى هذا التفسير، لا نرى لماذا هذا الاسم المشترك أزاح وفي النهاية ألغى أسماء الأعلام.

لقد ظن بروكلمان أن ولهوسن بافتراضه الفرضية السابقة يكون قد استلم بوعي من نظرية تايلور التي استقدمها روبرتسون سميث الى تاريخ الأديان السامية. إننا نعرف أنه بالنسبة لهذه المدرسة فكرة الله تأتي من الأرواحية. في استقلال عن هذه الطريقة في النظر، ولهوسن الذي لم يكن مع ذلك قادرا على التفكير في الأرواحية كمصدر مباشر لله العربي. سيتخيل رده عن طريق التجريد إلى الألوهيات الأرواحية.

بروكلمان وجد نفسه منقادا لطرح السؤال التالي: هذه الفرضية هل هي قابلة للتوفيق مع التقدم الحاصل بواسطة تاريخ الأديان خلال العشريات الأخيرة؟ من أجل الإجابة عليه، أعاد تحليل الأفكار التي ربطها العرب القدماء قبل الإسلام مع اسم الله. هاكم نتائجه المستندة على حجج دقيقة.

[1] W. Schmidet, Origine et evolution de la réligion, op.cit, p.242.

قبل كل شيء الله هو خالق العالم، الأرض والناس، وهو أيضا سيد الكون. هو الذي يرسل المطر. مصدر كل حياة.

إنه أيضا السيد المطلق على الناس، والذي يحدد قدرتهم. إنه يعرف أفكارهم وكلامهم وأعمالهم. إنه حارس الإيمان والقاضي الأعلى على الحياة الأخلاقية، والذي يعذب ويعاقب، إنه خالد ودائم القوة والخير. صفة الرحمن ترجع الى فترة ما قبل الإسلام. صيغة الحمد لله هي أيضا سابقة على الإسلام.

لقد قلنا أن مفهوم الله هذا لا يأتي لدى العرب القدماء، لا من احدى ديانتي الوحي اليهودية والمسيحية، ولا من الأرواحية، إذا أردنا أن نجد له مثيلا يجب أن ندير نظريا نحو تلك الشخصيات الالهية التي يعطي سودربلوم Soderblom لها اسم إيرهبر Urheber بمعنى المبدعون والخالقون، بروكلمان لا يأخذ هذه الكلمة بالمعنى الخاص الذي يعطيه اياه سودربلوم.

ويضيف في الواقع كما بين شميدت بوضوح في كتابه أصل فكرة الله" إن فكرة سودربلوم لا تستجيب للوقائع الاثنولوجية، ما لا يمنعني عن قبول الكلمة ذاتها urheber ولكن في معنى تام. الصفات والوظائف التي يعترف بها بروكلمان لله ترفعه بدون اعتراض فوق الإيرهيبر. الأمر يتعلق باله عظيم، الذي يتدخل في سير الظواهر الطبيعية وفي سير الحياة الأخلاقية للإنسان والذي يقيم البشر معه علاقات الترجي والصلاة والخوف.

من البديهي أن الخاصية التوحيدية للاعتقاد ما قبل الاسلامي في الله لا تشكل حجة اثنولوجية لصالح توحيد بدائي. الساميون بعيدون جدا عن المصادر الحقيقية للإنسانية. كل ما يمكن قوله في هذا الصدد، هو أن الرعاة الرحل احتفظوا مع بعض الوفاء، وسط شعوب ذات ثقافة عالية، بشروط الحضارات البدائية.

لا أتردد –يقول شميدت– في مواقفه بروكلمان عندما يكتب "فرضية رينان التي تمنح الساميين مزاجا توحيديا هي بدون فائدة، لا شيء في التراث كما نعرفه، يفترض وجود مفهوم الله مختلفا وقديما جدا.

من الصواب عدم رفض الفرضية التي حسبها مثل ربما إيرهابير آخرين، أن يأتي عبر التطور من مختلف الأبطال المحضرين أو من بعض الشخصيات الأسطورية.

ولكن هذه الفرضية ليست ضرورية اطلاقا. إنه من الصعب انكار أن الاعتقاد في خالق أول يولد عن الحاجة البدائية لتفسير العالم"[1].

بروكلمان يتساءل في النهاية إذا كانت هناك قبائل سامية تقاسمت هذا الاعتقاد؟ ويجيب أنه لا النقوش السامية للشمال أو الغرب، ولا النقوش الجنوبية العربية تمنحها معادلا لله. هيهن J. Hehn يستبعد من جهته فرضية لاجروج Lagrouge التي تعتبر EP كاسم علم للإله لدى الساميين البدائيين، الالهة الخاصة بالقبائل تمثل نوعا من التجزيئي لشخصيته.

الاعتراف بالكائن الأعلى من قبل علماء النفس والمؤرخين الدينيين:

1–علماء النفس الدينيون:

الوجود القديم للآلهة العليا لدى البدائيين اعترف به ونادى به عالمي النفس المشهوران الأمريكي جميس لوبا Games H. Lenba والالماني أوسترايخ Estrreich.

في كتابه حول" الدراسة السيكولوجية للدين" كتب لوبا قائلا:" يوجد رأي قديم حسبه الهمجيون الأكثر فظاظة هم ذاتهم يحتفظون بالإيمان في كائن أعلى، والذي لديهم عنه مع ذلك سوى فكرة مهيمنة والذي قلما يكرمونه. مع الحط من شأن هذا الرأي الى حد ما في فترة

[1] W. Shemidt, Origine et évolution de la religion , Op.Cit, p. 246-247.

معينة، وجد مكانه في أعقاب الدراسات الإثنولوجية الأكثر حداثة" واستنتج لوبا من هذه الدراسات أن الانتشار للإيمان في إله أسمى يتبناه أغلب الاثنولوجيين.

وإذا ظلت الرؤى منقسمة في أصل هذا الاعتقاد، لوبا يندهش من إهمال هذا المصدر الخاص بفكرة الإله. مشكل الخلق هذا، المصدر القديم والفعال للكائنات العليا اللامرئية، بعيد عن أن يحوز الاعتبار الذي يستحقه. فكرة خالق قوي للأشياء يمكن أن يعزى الى الذكاء المنخفض أيضا مثل ذكاء الهمجيين الأكثر فظاظة المعروفين لدينا حاليا. إنها تظهر مبكرا لدى الطفل. فيما يخص العلاقات بين السحر والدين، يؤكد لوبا ما يلي:

1-السحر والدين لهما مصدر مختلف، ولم يولد أحدهما من الآخر.

2-السحر ساهم قليلا بشكل مباشر على الأقل، في تطور الدين.

3-السحر في اشكاله الأكثر بساطة، ربما يكون أسبق من الدين، ولكن ما هو مصدر فكرة الإله الأعلى؟ يقول لوبا:" فكرة الخالق حضرت منذ البداية في الذهن الانساني، كما يحدث لطفل في سن الخامسة والسادسة، الذي يفكر فجأة أنه يجب أن يكون هناك من خلق الكون"[1].

في وقت متأخر قليلا، أحد علماء النفس الدينيين المحترمين جدا بألمانيا، البروفيسور أوستراياخ من جامعة توبنغ أعلن موقفه لصالح وجود الكائن الأسمى منذ المراحل الأولى للتطور الديني.

في مقدمته لعلم نفس الدين، كتب عن الأقزام ما يلي: نظرا للحالة الأكثر بدائية لحضارتهم فإنه من المدهش بالنسبة لكل العلماء الذين يشتغلون على الأقزام، أن يجدوهم مرتفعين جدا فيما يتعلق بالدين والأخلاق، عن الشعوب ذات الحجم الأكبر التي تحيط بهم؟ ويضيف:" إنه شيء مدهش أن نلاحظ أنهم يبدون موحدين إلى حد ما. أشياء كثيرة تبقى بحاجة الى إضاءة في الميدان الديني.

ولكنه من الصعب التهرب من الانطباع أن الحقيقة توجد في الاتجاه الذي اشار إليه شميدت في دراسة المونوغرافية الثمينة عن مكانه الشعوب القزمة في تاريخ التطور البشري.

أوستراياخ دافع عن واقعة وجود الكائن الأعلى ضد الفرضية التي أعادها مارتن Martin وووندت Wundt والتي تذهب إلى ارجاعها الى المبشرين المسيحيين. لقد كتب: "مصادفة حالة دينية مرتفعة جزئيا لدى الشعوب ذات الحضارة المدنية هو موضوع للدهشة بالنسبة للعلماء الذين نشؤوا في احضان المذهب الكلاسيكي للتطور. ولكن هذا الاعتراض (التأثير الخارجي) يفقد كل قوته أمام هذه الواقعة التي تتمثل في أن أفكارا توحيدية نصادفها لدى شعوب أخرى والتي تغدو فرضية التأثير المسيحي لاغية بكل تأكيد. إنهم يتفلتون من القواعد الصادرة عن الدوغمائية التطورية. لدى الشعوب الأخرى، أوستراياخ يعترف بالوجود الشائع لكائن أعلى ذي خاصية أخلاقية.

في مسألة العلاقة بين السحر والدين، فإنه يصرح بوضوح أنه ضد المصدر السحري للدين. لا يوجد إلى غاية الان أي دافع إلى اعتبار السحر كنوع من المقدمة للدين، كما يرغب عدد معتبر من العلماء: فريزر، ماريت، بروس وفيركاندت، وجود مرحلة ما قبل أرواحية مع السحر الخالص، شيء ممكن في ذاته، ولكن إلى غاية الان بدون برهان.

في كل مكان نجد أحدهما الى جانب الاخر، من أجل أن يشكل السحر حقيقة مقدمة ما قبل أرواحية للدين، يجب اثبات أنه في حالته البدائية لا يتضمن أي مفهوم عن الروح وأنه غير قابل لأن يوجد خارج كل دين[2].

2-اثنولوجيو ومؤرخو الدين:

[1] Ibid,p.250.
[2] Ibid, p.252.

الاثنولوجيون ومؤرخو الدين يجمعون أكثر فأكثر على الأطروحة التي تؤكد أقدمية الالهة الكبار.

الأمريكيون يترأسون الحركة، والسبب هو أن أمريكا الشمالية قطعت مبكرا بوضوح مع المذهب الأرواحي الذي شكل العائق الرئيس في وجه قبول هذه الأطروحة.

1-بروس K. Th. Preuse أستاذ بجامعة برلين ومدير Stratsmnseum ببرلين أحد مؤلفي النظرية السحرية. في سنة 1914 كشف عن كراس حول الحضارة الروحية للشعوب الهمجية حيث نقرأ: "بينما لحد الآن الاثنولوجيا تقدم الأرواحية وعبادة الاسلاف كأساس للدين، اندرو لانغ بعد مرور خمسة عشر سنة، أعلن عن الوجود السابق، لدى الشعوب الهمجية، التوحيد الذي لا يدين بشيء للأرواحية. وحديثا شميدت دافع بدون تردد عن نفس الرأي. يوجد هنا حالة مدهشة، ليس لدينا الحق في استبعادها، حتى لو اعتقدنا أن كلمة توحيد لا يمكن أبدا أن تطلق بصددها.

من المفروض البحث عن فهمها بالنسبة إلى القوى الدينية التي نرجعها إليها. ما يجعل هذا الفهم صعبا في نظر بروس هو أنه لم يجر اختباره على الشعوب الأقدم. وانقاد هكذا الى الاعتقاد أن الكائن الأعلى لا يقابل بالعبادة.

بروس مع ذلك. تحدث بلغة مرضية جدا في دراسة حديثة جدا نقرأ فيها: "اكتشاف هذه الكائنات (المخلصون والالهة العليا) سقط كقنبلة على الترسيمات التطورية الصاعدة التي وضعتها الإتنولوجيا.

نفهم أن هذه الاخيرة خلال عشر سنوات تتشبث يتجاهل الاكتشاف وأنها لم تسلم إلا حديثا بأخذها في الاعتبار. بمجرد التخلي عن فكرة عزو هذه الالهة الكبار إلى التأثير المسيحي، نفهم دون عناء أن طابعها الخاص للغاية دفع العديد عن العلماء الى اضفاء المثالية عليهم والنطق في موضوعهم بكلمة التوحيد البدائي أو حتى الوحي البدائي. بالنسبة لأولئك العلماء الذين يهتمون بمواءمة هذه الكائنات العليا مع النتائج السابقة للبحث الإتنولوجي، تبرز الضرورة مع ذلك لإجراء تعديل معين على مفاهيمهم السابقة. لقد ثبت التطور جنبا إلى جنب مع عبادة سحرية غير مفهومة إلى حد ما نصادف افكار سامية تستحق أن نسميها دينا.

ننتقل بعد ذلك إلى تقدير هذه الآلهة الكبار، كتب بروس قائلا: "كل العلماء الذين درسوا عن قرب هذه الالهة العليا يجمعون اليوم على الاعتراف أنها ليست نتيجة لتطور ما، ولكن يمكن أن تكون ابتكارا دينيا مبكرا. في الواقع، هناك حالات حيث لا نكتشف شيئا خارج هذه الالهة الوحيدة. في الختام، بروس يعبر عن هذه الفكرة المثمرة التي مفادها أن الاهتمام بتقريب الألوهية السامية للإنسان يقودنا غالبا الى توحيد ما مع الالهة الطبيعية الدنيا والأكثر إنسانية. هكذا إذن، إذا كانت الالهة الطبيعية والشياطين قد بدت تهذيبا تدريجيا للفكرة التي تكونها عنها والعبادة التي تؤديها إليها، غذلك ليس ناتجا أبدا عن تطور صاعد طبيعيا محتوما. الأمر يتعلق هنا يتطور تاريخي بالضبط، محدد بالدخول في احتكاك هذه الأهلة والشياطين مع كائنات عليا مختلفة تماما عن ذاتها وتأتي من مصدر مختلف.

نحن مدينون لبروس بملاحظة مثمرة أخرى في كتاب نشر عام 1926" Glauben und mytic in schatten des hochsteur"، أعرب عن هذه الفكرة التي مفادها أن دين الشعوب الهمجية لا يتمثل كتجميع لعناصر دون رابط بعضها ببعض. العناصر الخاصة التي يتكون منها هذا الدين تنتظم في نسق واسع، ترسم في الحقيقة، تصورا عاما للعالم. في هذا التصور للعالم، الدعامة أو كما يقول بروس التشخيص هو دائما الكائن الأعلى، اله السماء، الكثير من الأشياء غير القابلة للفهم من أول وهلة والسحرية ظاهريا تصبح معقولة بمجرد دراستها في ضوء هذا المبدأ.

2-في الخطاب الذي ألقاه خلال تركه لوظيفته كرئيس المجتمع الأنثروبولوجي لواشنطن سنة 1917، جون سوانتونJohn Rswanton، أحد قدماء الاثنولوجيا الشمال أمريكية، رفع اعتراضه القوي ضد امتداد التطورية إلى علم الاجتماع وإلى علم الدين بعد أن استدعى بطريقة

ساخرة، النظريات التطورية: عبادة الأسلاف لدى سبنسر والارواحية (تايلور)، والسحرية (فريزر)، رفضها باعتبارها ضيقة وغير ملائمة لتعقيد الواقع الكلي.

لقد كافح بشكل خاص تطوريتهم الاحادية الاتجاه وأعلن عن تعددية خطوط التطور، المتوازية والمستقلة.

حتى بالنسبة لمن يرى توحيدنا اليوم عاما، السؤال دائما مفتوح لمعرفة إذا لم يكن ذا علاقة مع هذا الاعتقاد في إله للسماء، الذي يرجع إلى الايام الأولى للدين بين الناس.

سوانتون واضح أكثر أيضا في دراسة طبعت سنة 1924 "The factor imprimitive réligion" بعبارات قاطعة أكد اعتراضه على نظريات تايلور، ماريت، وريد وليفي برول. من دون شك الدين خلال الزمن دخل في علاقة مع ظواهر الموت والحلم، ومع السحر الخ، ولكن مصدره ليس هنا.

إنه يمثل بالأحرى أحد العوامل الانسانية التي يجب أن تتوقف على ظواهر خاصة كالموت أو الحلم. في الأصل، يعتقد سوانتون، أن الدين كان كلا معقدا مكونا من عناصر مختلفة جدا، نتجت داخله متفاضلة شيئا فشيئا.

وهذا انطباعه عن أصل وانتشار التوحيد البدائي. لقد لاحظ أولا أن العناصر المتنافرة تختلف بنسب متزايدة، لتوحيد لا جدال فيه من أوجه متعددة من المسيحية، وفي الاسلام وفي التأهيلية الصينية، وفي الزرادشتية الفارسية. ثم يضيف إذا اعتمدنا على هذه التحديدات، المسافة ليست كبيرة جدا بين الديانات التوحيدية للشعوب ذات الثقافة العالية وهذه الثقافات البدائية حيث نصادف فكرة ألوهية عالية أو سامية. هذه الفكرة تشترك في العادة بالسماء أو الشمس، وهي في الواقع شائعة بشكل مدهش. ظهورها بين بعض الأعراق، والتي من ناحية أخرى تترسخ بدائية الى أقصى الحدود، استراليو الجنوب الشرقي مثلا، الزنوج إلى غاية البوشمان والاندمان، هو مدهش أكثر. في المجمل، التوحيد الذي هو إلى حد ما مهذب والذي نجده في جهات مختلفة من العالم من الممكن جدا أن يكون قد تكون باكرا بواسطة تخصص توحيد جرثومي.

كلماته في كل الأحوال، تشهد بصوت عال لصالح المصدر الأهلي، والانتشار الواسع والأقدمية البعيدة التي يعترف بها سوانتون للآلهة الكبار البدائية. والتي لا يفترض أنها خرجت من عبادة الاسلاف أو من الأرواحية أو من السحرية.

3-مختص آخر في الدراسات الأمريكية هو بول رادان P. Radin ألقى في 27 أفريل من عام 1924 محاضرة أمام Jawish historical society بلندن طبعت في ما بعد في كراسته تحت عنوان: التوحيد لدى الشعوب البدائية.

لقد ذكر أولا بالنظريات التطورية القديمة حول أصل التوحيد. ثم وصف في عبارات لائقة، دخول أندرو لانغ المسرح، حيث فسر النجاح القليل بين الأنثروبولوجيين لهذا العالم، جزئيا بسبب الخلل الحقيقي للوثيقة، ولكن أيضا بسبب جاذبية التطورية. "منح، فيما يلاحظ رادان، وجود شكل معين للتوحيد لدى الشعوب البدائية، مساو بالنسبة لهم للتخلي بالجملة عن مذهبهم في المراحل التطورية، الذي لم يكونوا مهيئين له، ولكن "هذه خمسة وعشرون سنة منذ أن طبع لانغ كتابه وحدسه الثاقب يتأكد اليوم، الانتروبولوجيون هم الذين كانوا على خطأ. وقائع دقيقة تم جمعها بواسطة مختصين حقيقين أتت لاستبدال تلك الأمثلة التي هي في الغالب مهمة جدا. لا أحد اليوم يشك عن جد أن الكثير من الشعوب البدائية تعتقد في خالق أعلى"[1].

فيما يتعلق بمصدر فكرة الكائن الأعلى، يطرح رادان مبدئيا أن لدى البدئيين الجمهور الكبير هو بالضبط ما نحن عليه بالنسبة لطرق التفكير والاحساس.

[1] Ibid, p.257.

وهو لا يخاف أن يضيف أننا نجد لديهم نفس الحجم من الهبات العليا والعبقريات كما هي لدينا.

في كل العصور ولدى جميع الشعوب، حتى أولئك البدائيين، كان هناك أناس مثاليين داخليا وخارجيا، وواقعيين وماديين، ومن وجهة النظر الدينية الورعين وغير المكثرين واللامباليين. التوحيد بدا كخلق لأناس ورعين وموهوبين بحس جمالي. لا يجب أن نعتقد أن هؤلاء الناس كانوا أكبر عددا. الكتلة الكبيرة كانت دائما غير مبالية من وجهة النظر الدينية، والمادية والواقعية. التوحيد يجب أن يدرك كتعبير أساسي، في الوقت نفسه فكريا ودينيا، عن مزاج وطريقة في الاحساس استثنائيين جدا. من هنا يأتي غياب العبادة، وتعذر بلوغ الكائن الأعلى، ليس له من سلطة حقيقية بالنسبة للجمهور سوى تلك التي يمنحها إياه الواقعيون ولكن هل الأمر يتعلق بتوحيد ظاهر يتساءل رادان؟ ويجيب:" هكذا اذن من الحق القول أن التوحيد الشكلي نادر، في العموم لدى الشعوب البدائية ربما ليس مع ذلك كما نعتقد لأننا لا نرى سوى مادية الوقائع. حسب تجربتي الشخصية أميل إلى الاعتقاد أننا بإيجاد عدد معين من التوحيديات الظاهرة لدى كل قبيلة يمكن استنتاج فكرة الكائن الأعلى"[1].

وفي الختام يعلن رادان معارضته للتطورية قائلا: " أخشى أن الأطروحة التي أتيت على عرضها تبدو مبالغا فيها ومناقضة تماما للفكرة التي نكونها في العادة عن البدائيين. أغلبنا تغذوا من الإتنولوجيا اللاأورذكسية التي ليست شيئا اخر سوى التطبيق، الحماسي والخالي من النقد لتطورية داروين على الواقع الاجتماعي، العديد من الإتنولوجيين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس أصروا على مواصلة هذه المغامرة. ولكن أي تقدم لا يكون ممكنا لأمد طويل طالما لم يرفض العلماء مرة واحدة إلى الأبد هذا التطور الغربي الذي يريد كل شيء متطورا وأنهم لا يفهمون أن بعض الأفكار والمفاهيم هي أساسية بالنسبة للإنسان كما يمكن أن تكون بالنظر الى وجوده البيولوجي، بعض الاستنتاجات السيكولوجية[2].

4- مختص آخر في الدراسات الأمريكية هو لووي طبع كتابات حول الدين البدائي، في هذا الكتاب بعد أن انتقد ورفض أرواحية تايلور، وسحرية فريزر وجماعية دوركايم collectivism ، درس مسألة الكائنات العليا.

خلال نقده لتايلور وصل لووي إلى الاعلان عن رأيه في الاعتراضات التي قدمها دوركايم على الأرواحية، اعتراضات يحكم عليها بأنها بدون قيمة. فليست كما يصرح سوى خليط من الادعاءات التعسفية ومن النفسية العقلانية وبنسبة كبيرة من عدم الفهم للأصول.

تأكيد دوركايم المتعلق بأسبقية الطوطمية عن الأرواحية حيث تكون نقطة البداية يقوم على هذا الاقتناع أن الأستراليين مع طوطميتهم هم أقدم الشعوب. أكثر بدائية مع ذلك مثلا، السيمونغ Semang والاندمان والبافيسون Pavisone يجهلون الطوطمية.

إنه يعارض بشكل قاطع المصرية الشاملة Panégyptianisme لدى إليوت سميت .Elliot-Smith G وبيري Perry اللذين يقولان بميلاد الأرواحية في مصر، ومنها انتشرت لدى الشعوب الأخرى، الحجج التاريخية المتذرع بها لصالح هذه النتيجة بدت له مساوية للصفر.

لقد أبرز ضد تايلور أنه تبعا لأفكار زمانه (داروين، هيكسلي Haxley)، أنه يبالغ كثيرا، على حساب عوامل أخرى في دور مفهوم الروح. وهو ما رآه مفكر مستقل هو لانغ فيما يتعلق بالكائن الأسمى للشعوب البدائية، ليس من الضروري ربطه بالأنيمية كمصدر له، وفي حالات كثيرة يكون الأمر مستحيلا.

لووي يقبل بالتطوير الذي أعطاه شميدت لفكرة لانغ عن الاله الأسمى. لقد اعترف أن وجود الاله الأسمى لدى العديد من الشعوب البدائية البعيدة عن بعضها البعض ومن أعراف مختلفة يستبعد فكرة الاستعارات المتأخرة التي حدثت بين تلك الشعوب وفكرة مصدر خاص مستقل بمعنى نظرية الافكار الأساسية (باستيان). المعطيات الدينية المشتركة بين الزنوج البوشيمان التاسمانين السابقة على اختلافهم يجب أن

[1] Ibid., p. 260.
[2] Ibid,p.260.

ترجع الى حقبة قديمة جدا. وعندما تتلاقى هذه المعطيات فوق ذلك لدى الأهالي الأمريكيين ذوي ثقافة دنيا، نجد أنفسنا نرجع حقيقة إلى الحقبة الأقدم للحياة الدينية للإنسانية والتي يكون في امكاننا بلوغها عن طريق البناء التاريخي. ويصرح انه من الزاوية المنطقية لا يوجد أي اعتراض على استدلال شميدت"[1].

5-هايلر Fr. Heiller أخذ موقفا في النقاش الدائر حول التوحيد البدائي حول المشكل المهم للصلاة الذي ألف فيه كتابا خاصا (Das getet)، بعدما اشار إلى أعمال لانغ وشميدت صرح لقد اكدنا أن لانغ وشميدت الأول بواسطة ميل رومنطقي والثاني تحت تأثير اهتمامات لاهوتية، قد أسبغا المتالية على البدائيين وعلى الكائنات الأولى التي يعتقدون فيها. الواقع الذي تم بناؤه بصلابة هو أن هذه الالهة الكبيرة تحتل مركزا مميزا في المفاهيم دينية للشعوب الهمجية والتي لا تستمد مصدرها من الاعتقاد في الأرواح ولا من عبادة الاموات". من دون شك متوافقا مع سودربلوم، إنه يجعل من هذه الالهة الكبيرة خالقين. خالقون لكل ما يوجد. منظمون ومشركون، حيث أن فعلهم غالبا ما يدرك على أنه يرجع إلى ماض بعيد مع ذلك يضيف هايلر لدى أغلب الشعوب الهمجية الكائن الأعلى يبدو أكثر من مجرد خالق، ومبدع ومؤسس ومشرع. انه يحفظ عمله ويحكمه ويراقب ملاحظة القوانين التي وضعها. سودربلوم لم يسلط الضوء بما يكفي على هذا الجانب للإله الأب. هايلر يؤكده بإيراده عددا من الوقائع المعبرة.

إذا كانت التضحية غائبة لدى بعض القبائل فإننا نجدها لدى أخرى والتي هي الاقدم. هذه هي حالة الأقزام الذين يقدمون تضحية البواكير للكائن الأعلى. هذا يكفي لإبعاد فرضيته التي حسبها التضحية تستمد أصلها من الواجبات الجنائزية. هايلر يعترف بذلك على الرغم من الأفكار الخاطئة التي يصرح بها في مكان آخر حول موضوع، التضحية هذا، تضحيات البواكير هذه التي تمارس في جميع أنحاء الأرض والتي توجد بشكل خاص لدى الاقزام في حضارة قليلة التطور، يعتبرها العديد من العلماء المعاصرين بعد أرسطو تمثل الشكل البدائي لهذه الطقوس الدينية. من المؤكد أنها تعكس مشاعر ومفاهيم مختلفة عن تلك التي تلهم التضحيات المعتادة التي تهدف الى تغدية أو إبهاج الكائن الأعلى. هذه التضحيات بالبواكير تتوجه إلى تشريفه والاعتراف بمجاله السيادي وشكره. وبواسطة قربان البواكير يشهد الانسان أنه مدين لصالح الألوهية بالأطعمة والمشروبات التي يتغذى بها. انه يعترف باعتماده الكامل على السلطات العليا التي ينتمي إليها بحق ما يمنح له استخدامه.

نادرا ما تكون الصلاة نفسها موجهة إلى العديد من الالهة العليا، الذين يتلاشون شيئا فشيئا أمام ألوهيات أخرى. ليس أكثر من العاصر الأخرى للثقافة الروحية.

الصلاة لا تقدم نفسها في هذه المرحلة من التطور الثقافي مع الجهاز الاحتفالي والاجتماعي الذي نراه يترافق مع المراحل الأكثر حداثة، هايلر يوافق: الصلاة إلى أب كل الاشياء في أغلب الاحيان هي الخلق المباشر والحر للفرد، وليست بأي حال من الأحوال عملا طقسيا للجماعة الاجتماعية.

هكذا في الصلاة الى الكائن الأعلى ينكشف لنا الدين الفردي للبدائيين في كل حماسته العاطفية. لقد تقرر عن قبائل مختلفة، أنه في حالة الحاجة والخطر تتوجه بنداء حر ومباشر إلى الكائن الاعلى من أجل النجدة والذي لا يهتم لا بالتضحية ولا بالرغبات.

ويخلص هايلر في عرضه إلى أن منظورا من التاريخ والفلسفة الدينين ينفتح أمامنا مختلف جدا ترسمه النظريات الجارية حول تكوين فكرة الله. الانسان البدائي لا يتوجه بصلاته الى عدد من الأرواح، ولكن الى الإله الواحد، أب الكل، سيد السماء والأرض[2].

[1] ينظر:Robert H. lowie, Primitive religion, George Routlege and sous, Brodiway house , Cartlane, london,1936.
[2] P.W.Shmidt,Origine et evolution de la religion, op.cit,p.262-264.

6- الرحالة الهولندي المعروف نيو ونهويس .Neuwenhuis.. W. A أستاذ بجامعة ليد Leyde ألقى خلال الذكرى المئوية 345 لتأسيس هذه الجامعة خطابا حول المفاهيم الدينية الحقيقية للإنسانية الكافرة، لقد عالج في الختام الكائنات العليا ومصدرها لدى الشعوب البدائية "أصل هذا المفهوم عن الكائن الأعلى كتب يبقى دون تفسير. السؤال أخذ خلال السنوات الأخيرة أهمية معتبرة. علماء امتثال لانغ وشميدت جهرا أن مفهوم الكائن الأعلى هذا لا يمثل نهاية تطور الاعتقاد في الأرواح. على العكس تماما، إنهما يجعلان منه مفهوما ابتدائيا. لقد أقام بعد ذلك وجود هذه الكائنات العليا بأندونسيا التي هي حقل دراسة هذا العالم. ليس في هذه النواحي نقدر على اضاءة مشكل أصلها. إنه يبدو من الضروري التنسيق مع مجموعة كاملة من المفاهيم الاسطورية والسحرية والمانستية manistes . ثم هو يتجه نحو شعوب قديمة جدا والتي لم يحدث لديها هذا الخليط.

إنه يحيل على كتابي شميدت حول مكانة الأقزام بن تاريخ التطور الانساني، وأصل فكرة الله. إنه يعرض ويقبل بالوقائع التي وردت فيهما.

وتطرق بعد ذلك لمشكل أصل الكائنات العليا بنفسه، لقد طبق لحل هذه المشكلة نتائج أبحاثه الخاصة اللاحقة ملامسا دور المبدأ المنطقي للتشخيص السببي في تكوين مفهوم أرواح الطبيعة،" أبحاثي اثبتت-يقول- أن مفهوم الروح ذاته يجب أن يكون مصدره الحاجة المنطقية لإعطاء علة للانفعالات ذات المنشأ الخارجي. إننا نرتكز على اعتبار مفهوم الروح الأعلى كمكون لمرحلة أولى لفكرة الله كما تم تقديمها لفكر الانسان بمجرد مواجهة العالم ككل.

إنه يحاول ادراك بنفسه هذه الحقيقة التي انطرحت أمامه. مع ذلك الشمس والقمر، سيدا النهار والليل وبعض النجوم الرئيسية تم ترقيتها فيما بعد الى شخصيات إلهية من غير أن يظهر في نفس الوقت هذا الجيش من الأرواح التي عرفتها المراحل الدنيا من التطور الانساني. مفهوم الروح يتطور لاحقا في علاقته مع الانطباع الحاصل بواسطة الاقسام الكبرى للطبيعة لفكر الانسان البدائي. الماليون اليوم يعطون فكرة عن هذه العملية العقلية. وحده ما يمنح فائدة خاصة يقودهم الى فكرة الروح.

النقطة الرئيسة في نظرية نيوونهويس هي الأصل الممنوح لفكرة الكائن، هذه الفكرة ولدت عن الانطباع الناتج على فكرة البدائي بواسطة العالم المعتبر ككل، فكرة كل الالهة الأخرى الأقل مرئية لم ترد اليه الا متأخرة، وفي معرض مختلف الميادين الخاصة للطبيعة. وهنا يتفق شميدت مع نيوونهويس.

التوحيد والاعتقاد في إله السماء:

هناك حجة جديدة ولافتة للانتشار السريع في الأوساط المختلفة لنظرية الكائن الأسمى لدى البدائيين والدور الذي منح لهذا الاعتقاد منذ بداية التطور الديني، في كتاب بتازوني R. Petazzoni الاستاذ بجامعة روما بعد أن كان أستاذا ببولونيا" حول تكوين وتطوير التوحيد في تاريخ الاديان".

بتازوني يبدأ بعرض عدم قدرة الانيمية التايلورية تفسير ميلاد توحيد حقيقي. نظرية لانغ وشميدت التي تدين الخطأ الارواحي وتضع التوحيد ليس في نهاية التطور بل في بدايته ستقوده إلى البحث كيف أن مفهومين متعارضين يمكنهما أن يتذرعا بالوقائع بالطريقة نفسها. لقد اقتنع أن المناظرة كانت عقيمة وكان ينبغي جمع أكبر عدد ممكن من الوقائع، إذا كانت نظرية لانغ صحيحة يجب أن تصب الوقائع في صالحها. ولكن كلما جمع الوقائع كلما بدت له الوضعية مختلفة" هكذا اذن التوحيد البدائي المزعوم، المفروض أنه يمثل المرحلة الابتدائية للتدين الانساني

يختزل الى الاعتقاد الخاص في كائن سماوي، الذي هو نوع من التشخيص للسماء في شكل انساني، بالتطابق مع قوانين هذا الفكر المتبقي الذي يحكم كل تمظهرات التدين البدائي"[1].

لقد وجد أثار هذا التصور ليس فقط لدى البدائيين من كل المناطق بل أيضا في الديانات الوثنية من الماضي والحاضر، وحتى أن هذا التصور لعب دورا في تكوين التوحيد الصحيح الخاص بإسرائيل. النقاش المستفيض للنظرية الجديدة أتى بعد عرض الوقائع الاسترالية. بتازوني طرح نظريته الخاصة عن الكائنات العليا الاسترالية التي ضاعف اعدادها أكثر من الكتاب الآخرين ليست أكثر من كائنات سماوية بمعنى كائنات تعيش في السماء وأن حياتها تتطابق مع حياة السماء ذاتها.

هذا الكائن السماوي هو نتاج شخصية وليس مع ذلك كما يذهب شميدت شخصية هي في الوقت نفسه من عمل الذكاء المنطقي والتخيل، هذا الأخير وحده كان مثار جدل حيث نعرف أنه المبدع الأكبر للأساطير. الكائن الأعلى هو حقيقة مادية مشخصنة أعني السماء.

2-فوكار. G. Foucart ارتبط اسمه بنقد انصار الطوطمية الفرنسيين، إنه عالم يستحق أن نستمع اليه في هذا النقاش سنتان قبل بتازوني قام بالخوض في اله السماء في مقال مهم.

فوكار يوضح في المقال الأول الانتشار الواسع لإله السماء لدى الشعوب المتحضرة ولدى الهمجيين ثم يستنتج يمكن أن نتمسك بالتأكيد أن مفهوم إله السماء يرجع الى أقدم مراحل العاطفة الدينية وأنه على الأقل أقدم من الطبيعانية البدائية ومن الفيتيشية الأرواحية. ومعرفة إذا ما كان ما قبل أرواحي في معطاه الأساسي، هو سؤال يبقى مفتوحا" ليس هناك أي عامل تاريخي في نظره يفسر بكفاية هذا الانتشار العالمي.

صفات الكائن الأعلى: صفات الكائن الأعلى:

يتميز الكائن الأعلى بجملة من الصفات:

1.**الخلود**: الكائن الأعلى وجد منذ الأزل وهو باق دائما إنه لا يموت.

2-**كلية العلم**: بفضل كلمة الكلي الكائن الأعلى يراقب سلوك البشر.

3-**الطبيعة الخيرة**: إنها صفة مميزة بشكل خاص للكائن الأعلى للحضارات البدائية: إن الكائن الأعلى خير وكل ما يملكه البشر من خير يأتي منه.

4-**أخلاقية الكائن الأعلى**: الخاصية الأخلاقية الأساسية للكائن الأعلى تجد أساسها في الامتياز الذي يمارسه في أن يكون الأول والمشرع الأعلى للأخلاقية.

5-**القوة**: إنها الخاصية الأكثر تمييزا للكائن الأعلى في الحضارات البدائية. القوة التي لا مثيل لها والتي هي غير محدودة.

6-**القدرة على الخلق** هي التجلي بامتياز لقوة الكائن الأعلى: هو الذي خلق السماء والأرض والانسان.

خاتمة: التوحيد هو ببساطة الاعتقاد في إله واحد، و يقابله التعدد أو الوثنية أو الشرك، أي الاعتقاد في آلهة متعددة. وكلمة monothéismeحديثة نسبيا، اخترعها في أواسط القرن السابع عشر الفيلسوف البريطاني هنري مور. إنها تنحدر من الكلمة اليونانية مونوس monos(وحيد) وتيوس (إله) في التقليد الغربي. هذا الاعتقاد في إله واحد يحيل بشكل خاص إلى إله الكتاب المقدس إله اليهودية والمسيحية والإسلام.

[1] Ibid, p.267.

والتوحيد البدائي الذي يدافع عنه شميدت هو ذلك التوحيد الذي وجد لدى الأقوام البدائية، وأكده العديد من الدارسين. ومعنى هذا أن التوحيد أسبق من الشرك والتعدد. وهنا يلتقي شميدت ومن وقف موقفه مع الإسلام الذي أكد أن التوحيد أسبق من الشرك، فآدم أبو البشرية كان نبيا وذريته من بعده كانوا على التوحيد الى أن ظهر فيهم الشرك والوثنية وقد جاء القرآن الكريم مؤكدا ذلك، يقول تعالى: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه". (البقرة: الآية 211) ويقول تعالى أيضا:" وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا". (يونس: الآية 19)

المراجع

بن معمر عبد الله، ميادين الأنتروبولوجيا الجزء الأول، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2021

فرويد سيغموند ، الطوطم والطابو، تر. بوعلي ياسين دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ظ1، 1983

Durkheim Emile, les formes élémentaires de la vie religieuse, PUF , Paris , 2005.

lowie Robert H., Primitive religion, George Routlege and sous, Brodiway house , Cartlane, london,1936.

Shmidt P. Guillaume, l'origine de l'idée de dieu , librairie aephonse picard et fils , Paris,1910.

Schmidt P. W., Origine et évolution de la religion, Editions Bernard Grasset, Paris, 1931.

Tylor Edward B., la civilisation primitive, Alfred cortes éditeur , Paris ,1920.